

أثر العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمذهبية على الفئات الشّعبية في بلاد الشام خلال العصر المملوكي
(٦٦٧-٩٢٣هـ/١٢٦٨-١٥١٧م)

إعداد
د. سعدية بنت موسى الزهراني
جامعة ام القرى - كلية الشريعة والدراسات الاسلامية
قسم تاريخ إسلامي

المستخلص:
يهدف هذا البحث إلى الوقوف على تفاصيل العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمذهبية التي ساعدتْ على ظهور الفئات الشّعبية في بلاد الشام وزيادة أعداد أفرادها ومساحة قاعدتها خلال العصر المملوكي، وهو عصر طويلٌ وحافلٌ بالأحداث المتنوعة التي كان أفراد الفئات الشعبية جزءً هامًّا منها. وتكمن أهمية هذه الدراسة في كونها تزيل الغبار عن فترة زمنية بالغة الأهمية من التاريخ الشامي وهي فترة الحُكم المملوكي الذي استمرّ لما يقرب من ثلاثة قرون من الزمن، كما تُسلّط الدراسة الضوء على تاريخ الفئات الشعبية الشامية التي كانت تشكل غالبية أفراد المجتمع حينها، هذا فضلاً على إبراز المعاناة التي واجهتها هذه الفئات في إثبات وجودها والدفاع عن حقوقها ومصالحها. وأما من حيث النتائج فقد توصّل البحث إلى جُملة من النتائج الهامة، منها أن المقصود بالفئات الشعبية هي عناصر الطبقة العامة من المجتمع الذين هم السواد الأعظم من الناس، سواء كانوا من العمال والحِرفيين والفلاحين وغيرهم ممّن لم يحظوا بمكانة اجتماعية معتبرة داخل المجتمع. ومن النتائج كذلك أن عوامل اقتصادية عديدة أسهمتْ في ظهور الفئات الشعبية وتوسّع قاعدتها، منها الفُحش في فرض المكوس المتنوعة، وتكرار ظاهرة تزييف العُملة التي تؤدّي غالبًا إلى زعزعة الحياة الاقتصادية وانتشار الغلاء وارتفاع أسعار المواد الغذائية خاصة.

الكلمات الإفتتاحية:
الطبقة العامة - المماليك - بلاد الشام - الثورات - الضرائب.

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلّ له، ومن يُضلل فلن تجد له وليًّا مرشدًا، وبعد:

تُعدّ بلاد الشام من أكثر البلاد العربية التي كانت تاريخيًّا هدفًا ومقصدًا لكثير من حُكّام المسلمين ممّن سيطروا أو حاولوا السّيطرة عليها على مدى العصور، ولهذا نجد خلفاء بني أمية قد حرصوا منذ قيام دولتهم سنة ٤٠هـ/٦٦٠م على اتخاذ مدينة دمشق عاصمة للخلافة، إذ أنها كانت قلب الشام في ذلك الزمن(١). ورغم انتقال عاصمة الخلافة إلى العراق سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م إلا أن بلاد الشام حافظت على مكانتها، خاصة بعد دخول الدولة العباسية في مرحلة الضعف منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، حيث ظلّت علاقة العباسيين ببلاد الشام ولمدة طويلة وثيقة الصلة بالدويلات والإمارات التي قامت بالمنطقة الشامية(٢).

وبعد قيام الدولة المملوكية(٣) سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م استمرّت هذه السلطة الجديدة في العناية ببلاد الشام والدفاع عن حدودها، وتجلّى ذلك منذ معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م عندما أوقف المماليك الزحف المغولي نحو مصر وأجبروا العدوان على ترك بلاد الشام(٤). ولم تكن بلاد الشام على عصر دولة المماليك مجرد إقليم من أقاليم الدولة فحسب، وإنما كانت أهم من ذلك بكثير، فقد كانت المساعد للدولة على الاحتفاظ بكيانها وتوازنها، والثبات في وجه الأخطار الضخمة التي واجهتها، سواء من جانب المغول أو من جانب الصليبيّين أو غيرهم(٥)، لأجل ذلك أدرك المماليك بأنه لا بقاء لدولتهم إلا في ظل وحدة جغرافية تربط بين الشام ومصر تحت حكمهم(٦)، فاعتبروا بلاد الشام هي منطقة الأمان لدولتهم(٧)، وقاموا بتقسيمها إلى نيابات سياسية وعسكرية عدّة تكون خاضعة للسلطة المركزية في القاهرة، حرصوا في تقسيمهم بشكل كبير على التّحري والدّقة في إنشاء جهاز إدارة ذو قوة كبيرة، كما حرصوا على اختيار النواب ذوي الخبرة والكفاءة الحربية والسياسية من كبار الأمراء(٨)، وقد تربّع بعض هؤلاء على عرش السلطنة وصاروا سلاطين في القاهرة، لاسيما ممّن تولّى نيابة دمشق، حيث

---

(١) ابن الطقطقي: محمد بن عليّ بن طباطبا (ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، ط١، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ص١٠٣، ١٤٨.

(٢) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي في العهد المملوكي (٦٥٦-٩٢٣هـ)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤، ١٤١١هـ/١٩٩١م، (٢٣/٢).

(٣) عُرفت الدولة المملوكية بهذا الاسم لأن حكامها كانوا في الأصل مماليك (عبيد) عند السلاطين الأيوبيين، وقد ورثوا حكم أسيادهم بعد سقوط الدولة الأيوبية. والعصر المملوكي يُقسّم على فترتين زمنيتين؛ عصر المماليك البحرية وعصر المماليك البرجية؛ فأما عصر المماليك البحرية فيمتدّ بين سنوات ٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م؛ أي حوالي ١٣٦ عام، تسلطن خلال هذه الحقبة ٢٩ سلطانًا. وأما عصر حكم المماليك البرجية (الشراكسة) فيمتدّ بين سنوات ٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م، أي حوالي ١٤٠ عام، تسلطن خلال هذه المدة ٢٤ سلطانًا. انظر: المقريزي: تقي الدين أحمد بن عليّ (ت٨٤٥هـ/١٤٦١م): السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، (٢١١/٤) وما بعدها؛ ابن تغري بردي: جمال الدين يوسف الأتابكي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م): النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، (٣١٠/٥) وما بعدها.

(٤) أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ط١، ١٩٨٢م، ص٩٦؛ تركي بن فهد آل سعود: نشأة دولة المماليك ٦٤٨-٦٥٨هـ/١٢٥٠-١٢٦٠م؛ إعادة قراءة للمصادر، دار عين للدراسات، القاهرة، (د.ط)، ١٤٣٨هـ/٢٠١٣م، ص٢٨ وما بعدها.

(٥) مسعد سيد محمد كتبي: نيابات الشام في عهدي برسباي وجقمق خلال الفترة ما بين ٨٣٥-٨٥٧هـ/١٤٣٣-١٤٥٣م، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٤٠.

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٢٢٧.

(٧) مسعد كتبي: نيابات الشام في عهدي برسباي وجقمق، ص٤٠.

(٨) عادل عبد الحافظ حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ط)، ٢٠٠٠م، (٩٥/١).



كانت هذه النيابة أكبرها، حتى أن القلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) أطلق على نيابة دمشق عبارة "نيابة الشام" وعبارة "مملكة الشام"(١).

وأما الفئات الشعبية في بلاد الشام، فالمقصود بها في الاصطلاح العُرفي هي "طبقة العامة"؛ أي الفئة العامة من الشاميين التي ظهرت نتيجة للظروف التي كانت تعيشها، سواء كان هؤلاء من العاطلين عن العمل، أو من أصحاب المهن المحتقرة، أو من المعدمين الذين لا يجدون قوت يومهم، أو من ذوي الدخل المتوسط، إضافة لتلك الفئة المحتقرة اجتماعيًّا كالأوباش(٢) والحرامية والعيّارين(٣) والشُطّار(٤) وقُطاع الطريق. وقد اختلفت الآراء وتباينت حول هذا مصطلح "طبقة العامة"؛ فبعض المعاجم أوردت مفهوم العامة على أنه بخلاف الخاصة(٥)، وأنه اسم جمع ومنها "العم"(٦). كما اختلفوا في سبب التسمية؛ التسمية؛ فأشار البعض إلى أنها نسبةً إلى العَمَم لكثرتهم وعُمومهم في البلاد، ولأنهم كثيرون ولا يحيط بهم البصر(٧). كذلك فقد أطلق البعض على هذه الفئة اسم "السوقة"؛ وهذا لاعتقادهم أن السوقة هم أهل الأسواق ، وقيل لأن الملوك يسوقنهم إلى إرادتهم، كما أن السوقة من الناس من لم يكن له سلطان سواء كان ذكرًا أو أنثى(٨) .

وقد تباينت آراء المؤرخين القدامى حول نظرتهم إلى هذه الفئة من عامة الشعب، فقد حوت بعض المصادر في ثناياها نظرة احتقار وازدراء؛ فقد وصفهم الطبري (ت٣١٠/٩٢٢م) بأنهم "باعة الطريق الطرّارين"، وأنهم "أهل السوق"(٩)، وذكر المسعودي (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م) أن "الناس قد أجمعوا على تسميتهم بالغوغاء"(١٠)، وهم عند الشريف المقدسي (ت نحو سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م) "جُهّال"(١١)، وعند أبي حيان التوحيدي (ت٤١٤هـ/١٠٢٣م) "السفلة"(١٢)، وأطلق عليهم ابن الجوزي (ت٥٧٩هـ/١١٨٣م) جملة

(١) القلقشندي: أحمد بن علي المصري (ت٨٢١هـ/١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الانشا، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ط)، ١٩٩٨م، (٣٣٧/٥)، (٨٥/١١).

(٢) الأوباش: جمع وبش؛ وهم الأخلاط من الناس، والضروب المتفرقون منهم. الجوهري: إسماعيل بن حماد الفارابي (ت٣٥٠هـ/٩٦١م): الصّحاح في اللغة، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار القلم، دمشق، ط٥، ١٩٩٩م، ص٣٢٨.

(٣) العيارون: جمع عيار؛ وهو الرجل الذي يخلي نفسه وهواها ولا يردعها ولا يزجرها. مصطفى إبراهيم الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار: المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، (١٨٨/٢). وانظر: محمد أحمد عبد المولي: العيارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، (د.ط)، ١٩٨٧م، ص٣٥ وما بعدها.

(٤) الشطار: مأخوذة من شطر فلان على أهله أي تركهم مخالفاً مراغماً ورحل. والشاطر هو الذي أعيا أهله ومؤدبه خبثاً. الزمخشري: محمود بن عمر الخوارزمي (ت٥٣٨هـ/١١٤٣م): أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ص٥٠٧.

(٥) مصطفى الزيات وآخرون: المعجم الوسيط، (٦٣٤/٣).

(٦) الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت٦٦٦هـ/١٢٦٨م): مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٩م، ص٢١١.

(٧) الصفدي: خليل بن أيبك المصري (٧٦٤هـ/١٣٢٦م): نكث الهميان في نكت العميان، تحقيق: أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩١١م، ص١٠.

(٨) ابن منظور: محمد بن مكرم الإفريقي (ت٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٤م، (١١٩/٣)، مادة "سوق".

(٩) الطبري: محمد بن جرير بن يزيد (ت٣١٠/٩٢٢م): تاريخ الرسل والملوك، دار التراث، بيروت، ط١، ١٩٦٦م، (٤٤٨/٨).

(١٠) المسعودي: عليّ بن الحسين البغدادي (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: أسعد داغر، دار الهجرة، قم، (د.ط)، ١٩٨٧م، (٥٨/٢) .

(١١) المقدسي: محمد بن أحمد البشاري (ت٣٧٥هـ/٩٨٥م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة ، (د.ط)، ١٩٩١م، ص١٥٣.

(١٢) أبو حيان التوحيدي: عليّ بن محمد النيسابوري (ت٤١٤هـ/١٠٢٣م): الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: هيثم خليفة الطعيمي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، (١٠٣/١).



من الألفاظ مثل "العوام والسوقة والغوغاء والسفلة"[١]، وسمّاهم ابن عبد الظاهر (ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م) بـ "الفقراء والسفلة"[٢]، واعتبرهم ابن الفرات (ت٨٠٧هـ/١٤٠٤م) "أوباش وأهل فساد"[٣].

وأما المؤرخون المعاصرون فبعضهم عرّفهم بأنهم "جمهور من الباعة والسوقة والسائقين والمكارين والمعدمين وأشباه المعدمين"[٤]، ووصفهم آخر بأنهم "السواد الأعظم من الناس الذين لم يكن لديهم أيّ سلطات بل كانوا من العاملين من ذوي الدخل المنخفض أو من العاطلين، وهم ممّن لم يحظوا بمكانة اجتماعية تذكر داخل المجتمع"[٥]. وعرفتهم إحدى الباحثات بأنهم "مختلف الشرائح من أهل الحرف والصنائع وصغار التجار والباعة والسوقة والسائقين والمكارين، وصولاً إلى أدنى شريحة من شرائح الطبقة الشعبية العاطلة من الشُطّار والعيّارين والعيّاق[٦] والحرافيش[٧]"[٨]. بينما أنصفهم باحث باحث آخر فوصفهم بأنهم "طائفة من السكان لا يسكتون على الضّيم، بل يدافعون ضد الظلم بكل ما أوتوا من قوة وصدق، فهم يدافعون عن حقوق الشعب بمختلف الطرق والأساليب، إضافة إلى قيامهم برجم الحُكام الظالمين بالحجارة"[٩]. وعلى الرغم من أن "العامة" كانوا دائمًا يدافعون عن الشعب وحقوقه إلا أنهم لم ينالوا مكانتهم المطلوبة في المجتمع، فكانوا يُنظر إليهم نظرة احتقار وازدراء مهما ارتفعت منزلتهم أو كانوا من ذوي العلم أو المال[١٠].

---

(١) ابن الجوزي: عبد الرحمن بن عليّ البغدادي (ت٥٧٩هـ/١١٨٣م): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، (١٣٣/٢).

(٢) ابن عبد الظاهر: عبد الله بن رشيد الدين السعدي (ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م): الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق: أيمن فؤاد، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، (د.ط)، ١٩٩٦م، ص٦٣.

(٣) ابن الفرات: محمد بن عبد الرحيم الحنفي (ت٨٠٧هـ/١٤٠٤م): تاريخ الدول والملوك المعروف بتاريخ ابن الفرات، تحرير: قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكانية، بيروت، ١٩٣٨م، (٨٩/١).

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عهد سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م، ص٢٤.

(٥) شلبي إبراهيم الجعيدي: طبقة العامة في مصر في العصر الأيوبي ٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م، ص٣٧.

(٦) العياق: والأعواق؛ من عاق فلان إذا صرفه عما أراد وحبسه عنه، والعائق الذي يعوق الناس عن عمل الخير. مصطفى مصطفى الزيات وآخرون: المعجم الوسيط، (٢٠٢/٢).

(٧) الحرافيش: جمع حرفوش؛ وهم سفلة الناس وأراذلهم. أحمد مختار عبد الحميد عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، دار دار عالم الكتب، بيروت، (د.ط)، ٢٠٠٨م، (٤٧٧/١).

(٨) الوقاد: محاسن محمد: الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ط)، ١٩٩٩م، ص٢٣.

(٩) فيصل الشلي: بلاد الشام في ظل الدولة المملوكية الثانية (دولة الجراكسة البرجية ١٣٨١م-١٥١٧م)، دار الزمان المدينة المنورة، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٧٦.

(١٠) عمر موسى باشا: الأدب في بلاد الشام (عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك)، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٨٩م، ص٦٧.

الدراسات السابقة:

وأمَّا من حيث الدراسات السابقة فقد أفاد البحث من بعض الدراسات الحديثة المعاصرة ، وتأتي في طليعة هذه الدراسات وأهمها:

١- أبو الفرج: هيام صالح: مجتمع دمشق ودوره السياسي في عصر الدولة المملوكية الثانية (٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م)، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الإسلامي.
٢- حشيش: رياض صالح: الحركة الصوفية في بلاد الشام خلال الحروب الصليبية (٤٩٢-٦٩٠هـ/١٠٩٨-١٢٩١م)، رسالة ماجستير غير منشورةم.
٣- زعرور: إبراهيم: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة.
٤- مؤلفات العلامة سعيد عبدالفتاح عاشور ومنها " العصر المماليكي في مصر والشام " وكتاب " نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك".
٥- "الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية " لمحاسن الوقاد ".
٦- حياة الحجي، كتاب السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك.
٧- إبراهيم زعرور وكتاب "الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين للأيوبي والمملوكي" وغيرها كثير مما ضمّته قائمة مراجع البحث .

أهمية البحث :

يهدف هذا البحث إلى الوقوف على تفاصيل العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمذهبية التي ساعدتْ على ظهور الفئات الشّعبية في بلاد الشام وزيادة أعداد أفرادها ومساحة قاعدتها خلال العصر المملوكي، وهو عصر طويلٌ وحافلٌ بالأحداث المتنوعة التي كان أفراد الفئات الشعبية جزءً هامًّا منها. وتكمن أهمية هذه الدراسة في كونها تزيل الغبار عن فترة زمنية بالغة الأهمية من التاريخ الشامي وهي فترة الحُكم المملوكي الذي استمرّ لما يقرب من ثلاثة قرون من الزمن، كما تُسلّط الدراسة الضوء على تاريخ الفئات الشعبية الشامية التي كانت تشكل غالبية أفراد المجتمع حينها، هذا فضلاً على إبراز المعاناة التي واجهتها هذه الفئات في إثبات وجودها والدفاع عن حقوقها ومصالحها. وأما من حيث النتائج فقد توصّل البحث إلى جُملة من النتائج الهامة، منها أن المقصود بالفئات الشعبية هي عناصر الطبقة العامة من المجتمع الذين هم السواد الأعظم من الناس، سواء كانوا من العمال والحِرفيين والفلاحين وغيرهم ممّن لم يحظوا بمكانة اجتماعية معتبرة داخل المجتمع. ومن النتائج كذلك أن عوامل اقتصادية عديدة أسهمتْ في ظهور الفئات الشعبية وتوسّع قاعدتها، منها الفُحش في فرض المكوس المتنوعة، وتكرار ظاهرة تزييف العُملة التي تؤدّي غالبًا إلى زعزعة الحياة الاقتصادية وانتشار الغلاء وارتفاع أسعار المواد الغذائية خاصة.

خطة البحث:

وقد تم تقسيم البحث إلى ما يلى:

- أولاً: العوامل السياسية.
- ثانيًّا: العوامل الاقتصادية.
- ثالثًا: العوامل الاجتماعية.
- رابعًا: العوامل المذهبية.



أولاً: العوامل السياسية:

مما لا شكّ فيه أن الثورات والفتن والصراعات التي تحدث في أيّ دولة من الدول تؤثر في مسارها وتهز كيانها وتؤدّي إلى العديد من النتائج، وقد تكون هذه النتائج إيجابية أو سلبية أو الاثنين معًا، وهو ما كان في العصر المملوكي الذي شهد العديد من الثورات والفتن والصراعات لأسباب مختلفة ومتعددة أدّت إلى ظهور هذه الفئات الشعبية في المجتمع الشامي.

وكان من أبرز تلك الفتن التي حدثت في العصر المملوكي وأثّرت في أرجاء البلاد، ظهور ما كان يُعرف بحركات العصيان ضد الحكم المملوكي؛ فقد رفض أمراء الأكراد أن يقسموا يمين الولاء أمام السلطانة شجرة الدر(١) وامتنعوا عن الاعتراف بها كحاكم للبلاد، وقد أثّر هذا الأمر على حكم المماليك منذ بدايته وجعله مليئًا بالمشكلات والمصاعب، ولم ينته هذا الموقف المعارض لشجرة الدر إلا بتوحيد كلمة المماليك في وجه المغول الذين كانوا يقتحمون مدن الدولة الإسلامية ويدمرونها الواحدة تلو الأخرى(٢).

وحتى بعد مواجهة العدوّ المغولي؛ فقد عانى المماليك أنفسهم من الانقسامات فيما بينهم والخروج على بعضهم البعض، فقد قام السلطان المعزّ أيبك(٣) بقتل الأمير أقطاي(٤) قائد المماليك البحرية، ففرّ معظم المماليك البحرية إلى بلاد الشام، وكان من ضمنهم الأمراء الكبار أمثال بيبرس(٥) وقلاوون(٦)

---

(١) هي أم خليل عصمة الدين بنت عبد الله المستعصمية الصالحية، المعروفة بشجرة الدر. كانت جارية أرمنية اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب فحظيت عنده فأعتقها وتزوجها. وقد اعتُبرت أولى سلاطين دولة المماليك البحرية، ومنهم من اعتبرها آخر سلاطين الدولة الأيوبية. انظر عنها: ابن كثير: إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م): البداية والنهاية، تحقيق: عليّ شيري، فهرسه: عبد الرحمن الشامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، (٢٤٠/١٣)؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (٤٢٦/١).

(٢) مفيد الزيدي: موسوعة التاريخ الإسلامي - العصر المملوكي، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، (د.ط)، ٢٠٠٩م، ص٢٠٣.

(٣) هو الملك المعزّ عز الدين أيبك بن عبد الله النجمي الصالحي المعروف بالتركماني. ترقّى مقدمًا للعساكر بعد مقتل تورانشاه وقيام زوجة أبيه شجرة الدر بالأمر، فقام أيبك بالزواج بها ثم نزلت له عن ملك مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، غير أنها تغيرت عليه فأمرت خدمها فقتلوه خنقًا بقلعة الجبل وذلك سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٥م. انظر ترجمته في: قطب الدين اليونيني: موسى بن محمد البعلبكي (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م): ذيل مرآة الزمان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، (٦٥/١)؛ الذهبي: محمد بن أحمد الدمشقي (ت٧٤٨هـ/١٣٧٤م): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٣م، (١٩٣/٤٨).

(٤) هو فارس الدين أقطاي بن عبد الله الصالحي الجمدار. كان من مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان شجاعًا طائشًا، عظُم شأنه وكثُر شره وأذاه للرعية حيث كان يُصادر أمواله ويأخذ حريمهم من الحمّامات، فتخوّف منه السلطان المعز أيبك فقتله غيلة في شعبان سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م. انظر ترجمته في: الصفدي: خليل بن أيبك المصري (٧٦٤هـ/١٣٢٦م): الوافي بالوفيات، تحقيق: دوروتيا كرافولسكي، نشر: فرانز شتايز، شتوتغارت، (د.ط)، ١٤١١هـ/١٩٩١م، (٣٠٩/٧)؛ ابن كثير: البداية والنهاية، (٢٨٨/١٣).

(٥) هو الملك الظاهر أبو الفتوح بيبرس بن عبد الله العلائي البندقداري الصالحي الجركسي.كان أتابكًا العساكر بمصر في عهد الملك قطز حيث قاتل معه المغول بعين جالوت ثم اتفق مع أمراء الجيش على قتل قطز فقتلوه وتولى هو السلطنة سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م. توفي بدمشق في المحرم سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م عن ٥٤ سنة. انظر ترجمته في: ابن الوردي: زين الدين عمر بن مظفر (ت٧٤٩هـ/١٣٧٨م): تاريخه، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، (٢٢٤/٢)؛ الصفدي: خليل بن أيبك المصري (ت٧٦٤هـ/١٣٢٦م): أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبو زيد ونبيل أبو عمه ومحمد موعد ومحمود سالم، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٣٢٢.

(٦) هو الملك المنصور سيف الدين أبو الفتوح وأبو المعالي قلاوون بن عبد الله الألفي الصالحي العلائي القبجاقي الأصل. اشتراه الملك الصالح نجم الدين الأيوبي ثم أعتقه سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م فأخلص الخدمة للظاهر بيبرس ثم لابنه الملك العادل سلامش، ثم خلع الأمراء العادل لصغر سنه وتولّى قلاوون السلطنة منفردًا سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، واستمر على الملك إلى أن توفي بالقاهرة في ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م عن ٦٩ سنة. انظر ترجمته في: ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة، ص٩٤؛ ابن الجزري: محمد بن إبراهيم (ت٧٣٨هـ/١٣٣٧م): تاريخ حوادث الزمان وأنبائه وفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، (٢٩/١).

وغيرهما، وظلّوا في الشام لمدة ثلاث سنوات مسبّبين المشكلات والمتاعب للسلطان المملوكي في القاهرة، غير أن هذه المتاعب توقفت بعد سقوط بغداد على أيدي المغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م واقتحامهم بلاد الشام في السنة التالية، فأظهر أمراء المماليك الطاعة والولاء للسلطان المظفر قطز(١) لمواجهة الخطر المغولي الداهم(٢).

وقد أدرك سلاطين المماليك أن دولتهم لن تستقيم لهم إلا إذا تمكنوا من مراقبة جميع الأخطار الداخلية والخارجية التي كانت تهدّد كيانهم أو تؤثر عليه(٣)، وفي نفس الوقت أدرك أمراء بلاد الشام تلك الأهمية الجغرافية الكبيرة للبلاد التي تحت إدارتهم وأغراهم بُعدها عن مركز الحُكم، حيث قاموا بمحاولات عديدة لفرض سلطتهم الداخلية على مدن الشام، ونظّموا عددًا من الثورات ضد الحكم المملوكي المركزي في القاهرة، وقام بعضهم بالمطالبة لأنفسهم بالسلطنة مما عرّض الدولة لمشكلات كبرى وضعف سياسي وعسكري، حتى أصبحت بلاد الشام في كثير من الأحيان مرتعًا للخصوم الخارجين والفارين من السلطة في القاهرة(٤).

ولعلّ من أشهر ثورات أمراء الشام الأولى ضد الحكومة المملوكية المركزية بالقاهرة، هو ما قام به الأمير علم الدين سُنجر الحلبي(٥) - الذي كان نائب السلطان قطز بدمشق - الذي احتجّ على مقتل قطز على يد بعض رجال قائده بيبرس، فقام سنجر بتنصيب نفسه سلطانًا على دمشق وذلك في ذي الحجة سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، ولقّب نفسه بالملك المجاهد وتحرك بشعار السلطنة وضُربت السكة باسمه وخُطب له على المنابر(٦)، وقام بتحصين قلعة دمشق واستعد للقتال وألّب أمراء المنطقة على العصيان وطلب منهم مساندته فيما اتخذه من قرارات، ولكنهم رفضوا الاستجابة لطلباته خوفًا من السلطان بيبرس الذي أرسل إلى الأمير سُنجر رسلًا وكتابات تأمره بلزوم الطاعة، وعندما رفض تلك المحاولات جهز السلطان بيبرس جيشًا زحف إلى الشام وقضى على تلك الثورة قبل استفحالها(٧)، حيث قُبض على الأمير الثائر في صفر سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م واعتُقل في قلعة الجبل بعد شهر واحد من إعلانه الثورة على السلطان(٨)، ثم قام السلطان بتولية نيابة دمشق لأحد الأمراء المخلصين التي وهو الأمير علاء الدين البندقداري(٩).

---

(١) هو الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله النجمي المُعِزّي التركي الاصل المصري. كان أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين الأيوبي، وقد تسلطن بعد خلع ابن أستاذه الملك المنصور علي ابن الملك المعز أيبك سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م. كان شجاعًا كثير الخير، ناصحًا للإسلام وأهله، وكان الناس يحبونه ويدعون له كثيرًا. قُتل في آخر سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م في طريق عودته إلى مصر حين تمالأ عليه الأمراء مع الأمير بيبرس البندقداري فقتلوه. انظر ترجمته في: قطب الدين اليونيني: ذيل مرآة الزمان، (٢٨/٢، ٣٦)؛ ابن كثير: البداية والنهاية، (٢٦٣/١٣).

(٢) جاسم محمد جاسم: الأهمية السياسية والعسكرية لقيام دولة المماليك البحرية في مصر وبلاد الشام ٦٤٨-٧٨٤هـ، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، المجلد السادس، العدد الأول، ٢٠١١م، ص٤.

(٣) إحسان عباس: تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، (د.ط)، ١٩٩٨م، ص٣٠٦.

(٤) مفيد الزيدي: موسوعة التاريخ الإسلامي - العصر المملوكي، ص٢٠٢.

(٥) هو علم الدين سُنجر الشجاعي المنصوري التركي المصري. وزير الديار المصرّية ومشدّ دواوينها ونائب سلطنة دمشق. كان جباراً عسوفًا مهيبًا، في أخلاقه شراسة وفي طبيعته جبروت وانتقام وظلم. ولما وُلّي نيابة دمشق لطف بأهلها وقلّ شرّه، فدام فيها سنتين ثم عُزل فعصى على السلطان الظاهر بيبرس بقلعة القاهرة إلى أن قُتل سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م وقد قارب عمره الخمسين. انظر ترجمته في: الصفدي : الوافي بالوفيات، (٢١٩/٤)؛ المقريزي: السلوك لمعرفة الملوك، (٢٥٧/١).

(٦) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (٤٣٩/١).

(٧) ابن تغري بردي: يوسف بن عبد الله الأتابكي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م): الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٨م، ص٥٦٧.

(٨) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (٥٣١/١).

(٩) هو علاء الدين أيدكين البندقداري الصالحي الحلبي. كان مملوكًا لجمال الدين يغمور ثم للملك الصالح نجم الدين الأيوبي، وإليه ينتسب الملك الظاهر بيبرس لأنه كان أستاذه.كان أميرًا جليلًا عاقلًا. توفي بالقاهرة سنة



ومن تلك الثورات التي وقعت في بلاد الشام كذلك تلك الثورة التي تزعمها سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م نائب السلطنة بدمشق الأمير سُنقر الأشقر(١) الذي رفض مبايعة السلطان المنصور قلاوون وأعلن استقلاله بمدن الشام، فأرسل إليه السلطان يقبّح فعله ويدعوه إلى طاعته ولكنه رفض، فحاربه في السنة التالية فانهزم سنقر وبادر إلى مراسلة ملك المغول آبغا(٢) وطلب منه الإغارة على بلاد الشام ووعده بالمساعدة، فدخل آبغا بجيوشه المنطقة ولكن السلطان المملوكي هزمه فتراجع المغول عن بلاد الشام وعقدوا صلحًا بين السلطان المنصور قلاوون والأمير سنقر(٣).

ومن العوامل السياسية التي أدّت إلى ظهور الفئات الشّعبية في بلاد الشام ذلك الضعف والانهيار الذي أصاب مراكز الحكم المملوكي في معظم فترات حكمه - لاسيما بعد الحقبة الأولى حين كان على عرش السلطنة سلاطين أقوياء استطاعوا إدارة حكم البلاد بقوةٍ وحزم بدءًا من سيف الدين قطز ومرورًا بالظاهر بيبرس ثم أسرة المنصور قلاوون وأولاده وأحفاده - وكان هذا الضعف لأسباب عديدة على رأسها عدم وجود نظام محدد وواضح للحكم، إلى جانب الابتعاد عن قواعد الشريعة الإسلامية والنزاع الذي كان يحدث بين الأمراء الكبار على السلطة، كل ذلك تسبّب في تقويض دعائم سلطنة المماليك والقضاء عليها بعد ذلك(٤).

وإذا تتبّعنا بالمقارنة تاريخ دولة المماليك وتلك التي سبقتها وهي الدولة الأيوبية(٥)، نجد الفرق واضح في الإدارة والحكم لدى الدولتين؛ فالحكم عند الأيوبيين كان متوارثًا بين أفراد أسرة واحدة تتداول

٦٨٤هـ/١٢٨٥م. انظر ترجمته في: ابن كثير: البداية والنهاية، (٣٢٢/١٣)؛ محمد راغب بن محمود الطباخ: إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، منشورات دار القلم العربي، حلب، ط١، ١٣٤١هـ، (٢٤٨/٢).

(١) هو سُنقر بن عبد الله الأشقر الصالحي النجمي. كان من عتقاء الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان من أعيان المماليك البحرية، وكان يُحدّث نفسه بالسلطنة لاسيما بعد أن تولّى نيابة دمشق ثم أعلن تمرّده وتسلطنه وتلقّب بالملك الكامل. حارب السلطان المنصور قلاوون لسنوات ثم تحصّن في آخره بمنطقة صهيون بفلسطين فحُوصر بها حتى أذعن للسلم بشروط، فاستدعاه السلطان قلاوون إلى القاهرة معزّزًا مكرمًا وأمّره على مائة فارس، فاستمر كذلك وافر الحرمة إلى أواخر سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م حين أعدمه الملك الأشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م لفتنة وقعت مع بعض الأمراء حول الحُكم. انظر ترجمته في: الصفدي: الوافي بالوفيات، (٢١٩/٤)؛ ابن كثير: البداية والنهاية، (٣٨٠/١٣).

(٢) هو آبغا بن هولاكو بن طلوي بن جنكزخان المغولي. كان جليل القدر عالي الهمة، شجاعًا مقدامًا ، خبيرًا بالحروب. توفي همًّا وكمدًا بعد سماعه بانكسار عساكره أمام المسلمين، وكان موته بنواحي همذان سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م عن نحو خمسين سنة، وكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة. انظر ترجمته في: المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، (٢٨٨/١)؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، (٣٢٨/٣).

(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (١١٧/٢)؛ ابن دقماق: إبراهيم بن محمد القاهري (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م): الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق: محمد كمال الدين عليّ، دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥م، ص٢٩٦؛ حسام الدين عباس الحزوري: الحركة الفكرية ومراكزها في نيابة دمشق في عصر المماليك البحرية (٦٤٨ه/١٢٥٠م/٧٨٤ه/١٣٨٣م) منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١١م، ص٣٨.

(٤) حياة ناصر الحجي: السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك - فترة حكم السلاطين المماليك البحرية من سنة ٦٦١-٧٨٤هـ، دراسة تاريخية وثائقية في واقع الممارسات المختلفة السلطانية والأميرية، جامعة الكويت، (د.ط)، ١٩٩٧م، ص١٥ .

(٥) الدولة الأيوبية: (٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م) نسبةً للأيوبيين الذين يُنسبون إلى السلطان الفاتح صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب الكردي، وكان أصلهم من أذربيجان، وكان نجم الدين أيوب في خدمة عماد الدين زنكي، فلما تُوفّي زنكي صار أيوب وأولاده في خدمة نور الدين زنكي، ولما تلاشى أمر الخليفة العُبيدي (الفاطمي) العاضد واستولى الصليبيون على الديار المصرية، أرسل يطلب النجدة من نور الدين، فأرسل الأخير إليه أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين، فلما توفي أسد الدين تولى من بعده صلاح الدين الوزارة، فلما توفي العاضد حكم صلاح الدين مصر نيابة عن نور الدين إلى أن ملكها، وبعد وفاة صلاح الدين اقتسم أبناؤه وإخوانه أملاك الدولة الأيوبية، واستمرّت إلى أن قامت على أنقاضها الدولة المملوكية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م. انظر: ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفي (ت٩٣٠هـ/١٥٢٣م): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، (٢٣٧/١)؛ عبد المنعم محمد حمدي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م، ص٧.

بشكل سلمي في غالب الأحيان، وهو ما لا نجده في الدولة المملوكية بسبب كون المماليك طائفة من أفراد شتّى وليست أسرة واحدة مترابطة النسب، وكان العنصر الغالب عليهم جنس الأتراك الذين تكونت منهم دولة المماليك الأولى البحرية، وجنس الجراكسة الذين تألفت منهم دولة المماليك الثانية البرجية(١). وقد أثّرت طبيعة المماليك وأصولهم المتفرقة ونشأتهم الموحدة التي تلقوها على أيدي أساتذتهم (أسيادهم)، فخلقت لديهم شعور بالمساواة بينهم حيث لا يكون لأحد من المماليك فضل أو ميزة على مملوك مثله، فجميعهم كانوا في يوم من الأيام رقيقًا يباع ويشترى، جاءوا من بلاد متعددة وبعيدة ليُكملوا حياتهم في بيئة جديدة ويتلقون تربية واحدة ثم يتم تحريرهم ويظهرون على مسرح الحوادث بأسلوب متشابه تقريبًا(٢)، هذا الشعور بالمساواة وعدم التفاضل فيما بينهم أثّر على نظام الحكم في الدولة المملوكية معظم فترة حكمها؛ فقد كان كل أمير كبير منهم يشعر بأن له الحق في كرسي السلطنة ويسعى إلى ما يظنه حق مشروع له فيها، وذلك لإحساسهم بأن السلطان الجالس على كرسي الحكم ما هو إلا واحد منهم ساهمت الظروف المحيطة به في جعله سلطانًا على البلاد ولكنه ليس أفضلهم لينال هذا الشرف(٣).

وكانت الفتن والمنازعات الداخلية والتي تصل أحيانًا إلى الصراع المسلح بين طوائف المماليك تُسهم - بشكل أو بآخر - في خلق هذه الفوضى الاقتصادية والاجتماعية؛ فبمجرد إطلاق إشاعة موت أحد السلاطين أو ركوب أحد الأمراء بالسلاح للقتال كان ذلك يسبب فزعًا شديدًا للناس حيث تغلق الأسواق والحوانيت وتبدو المدينة وكأنّ سكانها من الموتى(٤)؛ ففي سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م عصى نائب الكرك(٥) والشوبك(٦) وانضمت إليه العربان، فخاف أهل دمشق من ذلك العصيان حتى أن الطرقات خلت من المسافرين(٧)، وعندما وصلت مماليك السلطان إلى دمشق خرج نائبها لاستقبالهم وقدم لهم ما يحتاجون إليه من لحم وخبز وشعير، ولكنهم أفسدوا في المدينة وتطاولوا على الأموال والحريم والأولاد واشتدت الأمور وصارتْ وبالاً(٨). وقد اعتبر بعض المؤرخين سلطنة الناصر فرج(٩) من أسوأ الحقب التي مرت

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك ، مطبوع ضمن موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (د.ط)، ١٩٨٧م، ص٢٥٠.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٥١-٢٥٢.

(٣) حياة الحجي: السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك، ص١٦.

(٤) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي؛ عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)، ١٩٧٩م، ص١٥١.

(٥) الكرك: أو كرك؛ بلدة تقع شرق نهر الأردن، كانت في الأصل حصن منيع على جبل له ربضٌ عليه سور، وبين الربض والقلعة خندق عميق نحو ستين ذراعًا، وكان الحصن ديرًا للنصارى استدعوا إليه طائفة من الفرنج المجاورين وأسكنوهم فيه عندهم فزاده الفرنج تحصينًا وأقاموا فيه حاكمًا ورتبوا له جندًا ثم ملكه الأمير الصليبي أرناط الفرنسي إلى أن فتحه صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م. ياقوت الحموي: ياقوت بن عبد الله الرومي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، (٤٥٣/٤)؛ ابن شداد: محمد بن عليّ الحلبي (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، (د.ط)، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م، (٧٢/١).

(٦) الشوبك: حصن أو قلعة الشوبك هو قلعة حصينة في أطراف الشام، يقع بين عمّان وأيلة والقلزم (البحر الأحمر)، بالقرب من حصن الكرك. وكان هذا الحصن المعقل الأساس لإمارة الكرك والشوبك الصليبية بقيادة الأمير أرناط الفرنسي، وكانوا سيطروا عليه سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م، ويبعد هذا الحصن عن مثيله في الأهمية وهو حصن الكرك مسافة ١٢٠ كلم. ياقوت الحموي: معجم البلدان،ر(٣٧٠/٣)؛ طه علي الهباهبة: الشوبك في التاريخ والوجدان الشعبي، دار الينابيع للنشر والتوزيع، الجيزة، (د.ط)، ٢٠٠٠م، الجزء الأول.

(٧) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (٣٨٥/٣).

(٨) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، (٢٤٠/١).

(٩) هو الملك الناصر فرج بن برقوق بن أنص الجركسي اليلبغاوي العثماني المصري. بويع بالملك بعد وفاة والده سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م وعمره عشر سنوات فقام بتدبير ملكه الأتابك إيتمش، فكثرت في عهده الفتن ثم هدأت الأوضاع وانتظمت له الأمور إلى سنة ٨١٤هـ/١٤١١م حيث نادى الأمراء بخلعه فسجنوه في قلعة دمشق ثم أثبتوا عليه الكفر وقتلوه في صفر سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م، وكان له من العُمر يوم مقتله ٢٤ عام. انظر ترجمته في: المقريزي: السلوك

مرت على تاريخ المنطقة، حيث كثرت الفتن في عهده، وقام مماليكه بكثير من الجرائم في مصر والشام باستيلائهم على أموال الناس بغير حق وتدميرهم القرى، حتى أنه وُجد عند أحدهم من أموال وحواصل وخيل وسلاح منهوب ما يزيد عن ألف دينار[١].

ومن تلك العوامل السياسية التي أدّت إلى ظهور هذه الفئة في المجتمع الشامي استبداد بعض الحكام وسوء معاملتهم لأفراد الشعب؛ فقد عامل بعض السلاطين رعيتهم بكل حزم وقوة[٢]، وتعالوا على أبناء شعبهم بسبب عقدة الرّق التي صاحبتهم، فتكبروا عليهم واحتقروهم ورفضوا الاختلاط بهم حتى بلغ بهم ذلك التعالي أن استأثروا بمعظم دخل البلاد وفرضوا على الناس سياسة السُّخرة[٣]، كما فرضوا عليهم أقصى العقوبات التي يمكن أن توصف بالوحشية والقسوة، وهي عقوبات كانت تُسلّط على من كان يتمرد على أوامر السلطان أو نوابه أو من كان يرفض دفع الضرائب والمكوس. ومن أمثلة ذلك ما فعله الأمير شيخو[٤] بأحد أمرائه المعزولين، فقد أمر أن يطاف به في الطرقات وأن يحلق رأسه وتشرّح قشرته إلى خدود يوضع في كل جزء منها حشرة سامة ثم يضعوا فوقها قطعة من النحاس المصهور فظلت تلك الحشرات تنتشر في رأسه حتى مات[٥]. ومن ذلك ما فعله السلطان المملوكي الظاهر برقوق[٦] بنائب ملطية[٧] الأمير منطاش[٨] حين أرسل إليه أحد أمرائه الذي قام بتعذيبه بإحراقه ووضعه في الكسارات، وكان ذلك العذاب بعد أن أكد له بأنه لا يمتلك شيئًا من الأموال المطلوبة، ثم قام بقطع

لمعرفة دول الملوك، (٢٨٩/٦)؛ ابن حجر: أحمد بن عليّ العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م): إنباء الغُمر بأبناء العُمر، تحقيق وعناية: محمد عبد المعيد خان، وزارة المعارف بالهند، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، (٨٩/٧).

(١) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، (٤٥٧/١)؛ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ص٣٩.

(٢) أنطوان خليل ضومط: الدولة المملوكية (التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ١٢٩٠م-١٤٢٢م)، دار الحداثة للطباعة والنشر، ط٢، (د.ت)، ص٧٩.

(٣) سيأتي الحديث عن "السُّخرة" عند تناول العوامل الاجتماعية التي أدّتْ إلى ظهور الطبقة الشعبية في بلاد الشام.

(٤) هو الأمير سيف الدين شيخو بن عبد الله الناصري الساقي القازاني. كان أميراً كبيرًا جليلاً، شجاعًا مقدمًا، وكان يعد مثالاً للورع والتدين حيث قام ببناء خانقاه نسبت إليه، كما قام بالتبرع من أجل وضع قراء لقراءة القرآن الكريم. توفي في القاهرة سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م. انظر ترجمته في: الصفدي: الوافي بالوفيات، (٢١٠/٤)؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، (٢٥٧/٦).

(٥) أ. س. تريتون: أهل الذمة في الإسلام، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ط)، ١٩٤٩م، ص٦٩.

(٦) هو الملك الظاهر سيف الدين برقوق بن أنص الجركسي العثماني اليلبغاوي المصري. كان اسمه الطنبغا ولقّبه سيّده ببرقوق لجحوظ عينيه. تقلّبت به الأحوال في الأعمال السلطانية ببلاد الشام ثم عاد إلى مصر وتقدم في عهد الملك الأشرف شعبان وصار أتابكًا للعسكر إلى أن انتزع الملك من آخر سلاطين بني قلاوون الملك الصالح حاجي سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، ثم عُزل عن السلطنة لسنوات بتدبير الأمراء إلى أن استقرّ حكمه نهائيًا سنة ٧٩٤هـ/١٣٩١م. توفي بالقاهرة في شوال سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م عن ٦٠ سنة. انظر ترجمته في: ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، (٥٠/٤)؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (١٢٢/٤).

(٧) ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة ، تتاخم الشام ، بناها الإسكندر، وهي للمسلمين ، وجامعها من بناء الصحابة. وقد وجه ببنائها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م وأسكنها الناس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، (١٩٢/٥)؛ ابن عبد الحق: عبد المؤمن البغدادي (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: عليّ محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، (٣/ ١٣٠٨).

(٨) هو سيف الدين تمربغا بن عبد الله الأفضلي الأشرفي الشهير بمنطاش. تنقّل في المناصب إلى أن ولاه الظاهر برقوق نيابة السلطنة بملطية سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦م فجمع كثيرًا من العربان والتركمان وأظهر العصيان إلى أن قُبض عليه سنة ٧٩٣هـ/١٣٩٠م في ضواحي حلب فجاء الأمر السلطاني إلى نائبها بسجنه ثم قتل سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م. انظر ترجمته في: ابن حجر: أحمد بن عليّ العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٩م): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حقّقه وقدم له ووضع فهارسه: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٦م، (٦٤/٢)؛ ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، (١١٦/٢).



رأسه وحمله على رمح وطاف به في مدينة حلب وجميع مدن الشام حتى وصل به إلى مدينة القاهرة فعلّقه على أحد أبوابها(١).

ولقد وصل التعسف والظلم والاستبداد أقصى درجاته من قبل بعض أمراء المماليك مما دفع الناس إلى القيام بثورات عديدة طوال ذلك العصر، وانطلقت الألسنة بالهتاف بشتمهم وسبّ حرسهم وسلطانهم وتقديم الشكاوي ضدهم(٢). وبالمقابل فقد استخدم هؤلاء الأمراء العديد من الوسائل والطرق من أجل إخماد تلك الثورات، وحملت هذه الأساليب في طياتها أشد أنواع الظلم والقهر وانعدام الإنسانية، مثل سلخ الجلود ودفن الأحياء وتعليق رؤوس القتلى في رقاب نسائهم، وغيرها من وسائل التعذيب القاسية المستخدمة في تلك الحقبة(٣)، وقد أدى ذلك إلى خلق نوع من الاضطرابات والتوتر والمنازعات الداخلية، الداخلية، وانتشار للفوضى والفساد السياسي داخل البلاد(٤)، الأمر الذي أدّى إلى تزايد أعداد هذه الطبقة نظير هذه السياسة التّعسفية.

ويبدو للباحثة أنه مع قيام دولة المماليك البرجية سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م ازداد الظلم والجور والتّعدي على الحقوق والمبالغة في فرض المكوس وأخذ الرشوة، ونجد هذا واضحًا في نص الرسالة التي أرسلها السلطان المغولي تيمور لنك(٥) إلى السلطان برقوق سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م وكان مما ورد فيها قوله: "وكيف يسمع الله دعائكم وقد أكلتم الحرام، وضيعتم جميع الأنام، وأخذتم أموال الأيتام، وقبلتم الرشوة من الحكام"(٦)، والمتأمّل لنص هذه الرسالة يعرف شكل العلاقة التي كانت قائمة بين الرعية وحكامهم من المماليك، كما يبدو للباحثة أن تيمور لنك قد وظّف هذه الظروف السيئة التي سادت بلاد الشام آنذاك للقيام بهجومه في ذلك العام.

وهكذا نجد أن المماليك - وخاصة بعض نوابهم في بلاد الشام - قد ظلوا في أغلب فترات حكمهم فئة مستبدة ظالمة لم تشعر بما كان يعانيه العامة من مشكلات ولم يفكروا حتى في إيجاد حلول لها، وهناك العديد من الأمثلة التي توضح أشكال الظلم والاستبداد التي مارسها أمراء المماليك؛ فمن ذلك ما حدث سنة ٦٧٧هـ/١٢٨٧م حين قام السلطان قلاوون بالاستيلاء على أموال الناس والتنكيل بمن يرفض إعطاءه المال(٧). ووصل الأمر ببعضهم أنه حينما تكثر الشكاوى ضده فإنه يرد على ذلك بالانتقام مستغلاً مستغلاً لسلطته؛ ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما كان عليه نائب السلطة في بيت المقدس من ظلم واستبداد حتى تضرّرت أحوال الناس فكثر السّراق وقطعوا الطريق على الناس، وعندما شكاه الناس إلى السلطان أنزل بهم أشد العقاب فضربهم وحمّلهم فوق طاقاتهم من الخدمة، وكان من يتخلف منهم عن ذلك يحتجز زوجته في السجن حتى تدفع المال عن زوجها(٨). والأدهى من ذلك ما فعله نائب طرابلس الذي أراد أن

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، (٢١٠/٧).

(٢) جورجي زيدان: استبداد المماليك، دار الجيل، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص١٠.

(٣) أنطوان ضومط: الدولة المملوكية (التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري)، ص٨٣.

(٤) أحمد مختار العبادي: في التاريخ الأيوبي والمملوكي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ط١، ١٩٩٢م، ص١٢٥.

(٥) هو تيمور بن ترغاي بن أبغاي الكشي، الشهير بتيمور لنك، ومعناه الأعرج. كان ابن أمير وزعيم قبيلة في سلطنة بلخ ثم سيطر على تركستان وسمرقند وما حولها سنة ٧٧٣هـ/١٣٧١م، ثم ملك بخارى وخوارزم وخرسان وتبريز وأذربيجان، ثم دخل بغداد سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م، ثم حلب ودمشق سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، وبعدها غادر المنطقة ورجع إلى بلاده، ثم حارب العثمانيين وهزمهم، ثم توجه إلى الهند فملكها، وبعدها رجع إلى عاصمة مملكته سمرقند فتوفي بها سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م عن سبعين سنة. انظر ترجمته في: ابن عرب شاه: أحمد بن محمد الدمشقي (ت٨٥٤هـ/١٤٥٠م): عجائب المقدور في أخبار تيمور، طبعة كلكتا، الهند، (د.ط)، ١٨١٧م، (١٧٧/١-١٧٩)؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، (١٠٣/٤).

(٦) ابن عرب شاه: أحمد بن محمد عجائب المقدور في أخبار تيمور، ص١٣٦.

(٧) ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، (٥٥٢/١).

(٨) العليمي: عبد الرحمن بن محمد الحنبلي (ت٩٢٨هـ/١٥٢٢م): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، (٣٥٧/٢).



يسلّم جامع طرابلس للصليبيّين مقابل دنانير معدودة، ولم يمنعه من ذلك الفعل إلا قيام كبار رجال البلد ومجموعة من الناس بالثورة عليه، فقام السلطان الظاهر برقوق بعزله من منصبه(١).

وهكذا نجد أن الانقسامات التي سادت دولة المماليك والفتن التي حدثت فيما بين سلاطينها وأمرائها ونوابها كان لها أثرها الواضح في تدهور أوضاع المجتمع المملوكي إلى فئات مختلفة ومتباينة، وبالتالي ظهور هذه الفئات الشعبية بين جنبات المجتمع المتهالك، ولا عجب في ذلك فإذا كان أمراء البلاد وقادتها مشتّتين ومنقسمين وكل فرد منهم يريد السلطة لنفسه ويتصارع عليها ويرفض الانصياع لأوامر السلاطين، فليس من الغريب أن ينقسم المجتمع وتظهر الفئات التي تريد أن تحقق مصالحها هي الأخرى.

ثانيًا: العوامل الاقتصادية:

كان الاقتصاد في بلاد الشام الركيزة الأساسية التي اعتمد عليها سلاطين المماليك ونوابهم بها في تثبيت حكمهم، ولكن بسبب الاضطرابات السياسية والاجتماعية تدهور النظام الاقتصادي وارتفعت الأسعار وتفاوتت الطبقات الاجتماعية لاسيما في عصر الدولة البرجية، ومن هذه العوامل: إهمال وسائل الرّي، وهبوط الإنتاج الزراعي، وانهيار النظام النقدي، والتلاعب بالعملة وتزييفها(٢)، وهذا بعكس عصر عصر الدولة البحرية حيث شهدت رواجًا اقتصاديًا ظهر جليًّا في الأسواق التي كان عددها كبير وتمتلئ بالحركة والنشاط وبها الكثير من أصناف البضائع(٣).

ولقد كانت الأوضاع الاقتصادية السائدة في العصر المملوكي تعكس الظروف السياسية التي كانت قائمة والتي تقف وراءها بعض الفتن الداخلية والمؤامرات الداخلية، ومن أمثلة الاضطرابات الداخلية التي عانت منها بلاد الشام ما وقع أيام حُكم السلطان المظفر حاجي(٤) من غلاء الأسعار وتوقف أسباب الرزق وقلة الغلال وكثرة قدوم الناس من الأقاليم إلى المدن الكبيرة بحثًا عن الوظائف المختلفة، ونتيجة لذلك انتشرت عمليات السلب والنهب بحثًا عن الرزق(٥). وأما المؤامرات الخارجية؛ فقد اندفعتْ السلطة المملوكية أمام هذا الخطر إلى دعم القوة العسكرية حتى تتمّ مواجهة الأعداء، فاتجه المماليك لتقوية الجيش بشراء مماليك جدد وتربيتهم، وكانت الوسيلة لإعالة هذا الجيش هو الاعتماد في إدارة البلاد على نظام الإقطاع الحربي(٦) بتقسيم الأراضي الزراعية على أربعة وعشرين قيراطًا(٧)؛ أربعة منها للسلطان

---

(١) أحمد العبادي: في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص٣٥٨.

(٢) قاسم عبده قاسم: أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، مطابع جامعة عين شمس، القاهرة، (د.ط)، ١٩٧٨م، ص٧٣.

(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (٤٩٦/٣).

(٤) هو الملك المظفر زين الدين حاجّي ابن الناصر محمد ابن المنصور قلاوون المملوكي المصري. سُمّي حاجّي لأنه ولد في في طريق عودة أبيه من الحج. وُلّي بعد مقتل أخيه الملك الكامل شعبان سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م، فاشتغل باللهو واللعب بالحمام وأنفق في ذلك أموالاً كثيرة، وساءت سيرته وفتك ببعض القواد كما همّ بقتل آخرين، فعاجله الأمراء بالقتل في رمضان سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م وعمره ١٤ سنة، وكانت مدة سلطنته سنة وأربعة أشهر. انظر ترجمته في: الصفدي: الوافي بالوفيات، (١٢٢/٤)؛ ابن كثير: البداية والنهاية، (٢١٩/١٤).

(٥) حياة ناصر الحجى: أحوال العامة في حكم المماليك؛ دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، دار القلم، القلم، بيروت، ط١، ١٩٩٤م، ص١٨٥.

(٦) الإقطاع الحربي: نشأ هذا النظام في الشرق الإسلامي في عهد الدولة السلجوقية التي كانت تسير على أساس مرتبات نقدية للجيش النظامي حتى منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي حيث أدى اتساع رقعة الدولة وصعوبة السيطرة عليها إرهاق الإدارة المالية بباهظ المرتبات التي كانت تصرف للجيش إلى تفكير نظام الملك في الاستعاضة عن المرتبات النقدية بالإقطاعات من الأراضي وتوزيعها على مختلف عناصر الجيش. انظر: النويري: أحمد بن عبد الوهاب البكري (ت٧٣٣هـ/١٣٣٣م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، (٢٨٤/٣١)؛ عبد الله سعيد الغامدي: جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، (أصل الكتاب رسالة دكتوراه)، مطابع جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٢٩٦.

(٧) القيراط: هو نصف دانق وأصله قراط و القيراط جزء من أجزاء الدينار وهو نصف عشرة في أكثر البلاد وأهل الشام يجعلونه جزءاً من أربعة وعشرين، والياء فيه بدل من الراء وأصله قراط. وقيمته في العصر النبوي تقدر ب ٠.٢٢٧٤ غرام. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة "قرط"، (١١٥/١١)؛ محمود فاخوري: موسوعة وحدات



للسلطان والرواتب، وعشرة للأمراء والزيادات، وعشرة للأجناد، ثم صارت أربعة عشر للسلطان، وباقي العشرة للأمراء والإطلاقات والزيادات والأجناد، وهو ما أدّى إلى إضعاف الجيش وأسهم في انتشار الفتن والقلاقل(١)، فانقسم المجتمع إلى طبقتين: طبقة الحكام العسكريين والذين كانوا يملكون جُلّ الأراضي كإقطاعات، وطبقة أخرى مدنية اقتصر دورها على الإنتاج ودفع الضرائب(٢)، وقد توصلت الباحثة أنه من الطبقة الثانية انبثقت الفئات الشعبية التي أسهمت عوامل اقتصادية عديدة في ظهورها، وكان من أبرزها:

١- فرض المكوس وتزييف العملة وارتفاع الأسعار: كان النظام الاقتصادي السائد في بلاد الشام يرتكز على **فرض المكوس**(٣) على اختلاف أنواعها، منها - على سبيل المثال لا الحصر - **"مُكس الغلة"**(٤) المفروض على الغلال وعلى المتاجرة فيها، و"مقرر السجون" وهو مبلغ يؤخذ على كل من يتم سجنه، و"مقرر الأقصاب والمعاصر"(٥) المقرّر على ما يجنى من مزارع قصب السكر وما ينتج من المعاصر، ومنها "مقرر المراكب" وهو ما يؤخذ من كل مركب بتقرير معين يعرف بمقرر الحماية(٦)، إلى جانب ضريبة تفرض على السفن الداخلة إلى الميناء وقيمتها دوكة(٧) واحدة، وبعد دفع هذه الضريبة تليها ضريبة العبور وكانت قيمتها دوكتين لكل فرد(٨). وإلى جانب المكوس المذكورة آنفًا نجد مكوس أخرى فُرضت على العامة بمسميات مختلفة، مثل مكس المواريث الحشرية(٩)، ومكس الجوالي(١٠)، ومكس

القياس العربية الإسلامية وما يعادلها بالمقادير الحديثة: الأطوال، المساحات، الأوزان، المكاييل، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، (د.ط)، ٢٠٠٢م، ص٢٤٠.

(١) ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق: خليل شحاذة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، (٤١٠/٥).

(٢) رشا فخري النحال: فن الرسائل في العصر المملوكي؛ دراسة تحليلية، الجامعة الإسلامية، غزة، (د.ط)، ٢٠١٣م، ص١٨.

(٣) المكوس: جمع مكس؛ وهو جُعلٌ يؤخذ على البضائع الواردة من البلاد الأخرى، وأصل الكلمة "كمرك" التركية وعربيته مكس. والمكوس عادة قديمة عُرفت عند معظم الأمم السابقة. مصطفى الزيات وآخرون: المعجم الوسيط، (١٣٤/١)؛ سمير الدروبي: لفظة "المكس": أصولها وتطورها الدلالي والتداولي في المعاجم العربية ومصادر التراث العربي، مجلة جامعة أم القرى، العدد ١٢، ربيع الآخر ١٤٣٥هـ/فبراير ٢٠١٤م، مكة المكرمة، ص٧٠.

(٤) مكس الغلة: ضريبة كانت تفرض على التجار بمقدار العشر عن كل ما يباع في الأسواق أو يدخل اليها، ويؤخذ ثمن كل غرارة ثلاثة دراهم ونصف فضة. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (٩٨/٤). وانظر: يوسف درويش غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، الزرقاء، الأردن، (د.ط)، ١٩٨٢م، ص١٠٨.

(٥) إيمان أحمد مقابلة: القرية في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، قسم الآثار، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩٨م، ص٢٠٢.

(٦) المقريزي: أحمد بن عليّ القاهري (ت٨٤٥هـ/١٤٦١م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، (١٦٤/١).

(٧) الدوكة: مفرد دوكات؛ وهي الدينار الإفرنتي (الإفرنجي) المنسوب إلى إمارة البندقية الإيطالية، وقد استمرّ التداول بها إلى سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٥م حيث حلّ محلها الدينار الأشرفي الإسلامي. فاطمة محمد حسن المباركي: الأزمات الاقتصادية في الحجاز خلال العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٣٢هـ/٢٠١٢م، ص٤٤.

(٨) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، (٤٥٠/٢).

(٩) المواريث الحشرية: هي ما يتركه المتوفّى الذي لا وارث له أو له وارث لا يستغرق ميراثه. وكان لها شادّ خاص وديوان خاص، ويتوّلاها غالبًا متأسلمة أهل الذمة. انظر: ابن شاهين: عبد الباسط بن خليل الظاهري (ت٩٢٠هـ/١٥١٤م): نيل الأمل في ذيل الدُّول، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، (٣٢/٢)، هامش (٨).

(١٠) الجوالي: جمع الجالية؛ وهم أهلُ الذمة الذين تحوّلوا من أرض إلى أرض، والمقصود هنا الجزية التي كانت تؤخذ من أهل الذمة. الفراهيدي: الخليل بن أحمد الأزدي (ت١٧٠هـ/٧٨٦م): كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (د.ط)، (د.ت)، (١٨١/٦).

الرّمى والطرح[(١)]. وما يلاحظ على هذه الضرائب أنها كانت تجمع من الناس بسبب ضعف واضطراب اقتصاد الدولة، خاصة أن بعض نواب المقاطعات استغلوا سلطتهم فقاموا بجمع المكوس والضرائب من الأفراد سواءً كان ذلك من المال أو من الدواب[(٢)].

ولقد حاول بعض سلاطين المماليك وكبار الأمراء من النواب وغيرهم التّقرب من العامة عن طريق ظهورهم بمظهر أشخاص متديّنين يرفعون الظلم عن الناس[(٣)]؛ فقاموا بإلغاء بعض المكوس كما فعل السلطان الناصر محمد[(٤)] ابن قلاوون سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م حين أبطل المكوس والضرائب عن جميع أصناف الغلال[(٥)]، وكان نواب الشام في عهد والده السلطان قلاوون قد فرضوا ضرائب باهظة على الفلاحين، وقد أبطلها ابنه بعد الشكاوى التي رفعها هؤلاء الفلاحون إليه[(٦)]. ومن ذلك الإلغاء كذلك ما قام به نائب بيت المقدس الأمير أحمد بن اليغموري[(٧)] عندما أبطل المكوس والمظالم والرسوم التي فرضها النواب قبله بالقدس بمرسوم نُقش على رخامة ألصقت على باب الصخرة لتأكيد القرار[(٨)].

وأما العامل الاقتصادي المتمثل في **تزييف العملة** فقد سبب قلقًا ومعاناة مادية للطبقة العامة، حيث لم يكن هناك معيار نقدي ثابت للمعاملات التجارية مما عرّض العُملة في العصر المملوكي لحالة من الاضطرابات أدّت إلى زعزعة الحياة الاقتصادية، فتسارع الحكام إلى ضرب النقود بشكل متسرّع ومبالغ فيه من ناحية، كما تلاعبوا بكمية المعدن الثمين المستخدم فيها من ناحية أخرى[(٩)]، فضربوا عُملات جديدة تسببت في غلاء الأسعار وسوء الأحوال الاقتصادية[(١٠)]. وبالرغم من أن السلطة المملوكية لم تأت بعُملات نقدية خاصة بها في كثير من الأحيان، وإنما ورثتْ جميع ذلك بمسمّياتها التي كانت عليها، وظلت هذه الفئات النقدية كما هي دون تبديل أو تغيير، ولكن في ظل هذه السلطة فقد كانت العُملة

---

(١) الرمى والطرح: أو طرح القتلى؛ فريضة مستحدثة تفرض على العامة في حال تعرض أحد سكان الحيّ للقتل. ابن طولون: محمد بن عليّ الحنفي (ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م): مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق: خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص١٦٤.

(٢) البيومي إسماعيل الشربيني: النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م، ص٢٠٢.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، (٣٩/٩). وانظر: أنطوان ضومط: الدولة المملوكية (التاريخ السياسي والاقتصادي والاقتصادي والعسكري)، ص١٠٣.

(٤) هو الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي المصري. تولّى السلطنة سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م وعمره تسع تسع سنوات ثم خُلع منها بعد سنة لصغره وأُرسل إلى قلعة الكرك، ثم أعيد للسلطنة بعد أربع سنوات ولكن أقام بالقلعة كالمحجور عليه بينما كانت السلطة بيد الأميرين بيبرس الجاشنكير وسلار، واستمر كذلك نحوًا من عشرين سنة حتى ضاق صدره فخرج إلى الكرك ثم دخل دمشق ومنها زحف إلى مصر فاستولى على الملك وصلُحتْ له الأمور واستمر كذلك أكثر من ٣٢ سنة إلى أن توفي بالقاهرة في ذي الحجة سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م عن ٦٥ سنة. انظر ترجمته في: الصفدي، الوافي بالوفيات، (٢٥١/٤)؛ ابن شاكر الكتبي: محمد بن شاكر (ت٧٦٤هـ/١٣٣٦م): فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ط)، ١٩٧٣م، (٣٥/٤).

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ص٢٩٣.

(٦) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (٣١٥/٥).

(٧) هو الأمير شهاب الدين أحمد بن محمد اليغموري. كان ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بدمشق في عهد السلطان الظاهر برقوق، وكان يُظهر محبة العلماء ويُعجبه مباحثهم ويفهم جيدًا. توفي بقلعة الجبل بالقاهرة في شوال سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م عن ٦٠ سنة. انظر ترجمته في: ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، (١١٦/٦)؛ العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، (٩٣/٢).

(٨) العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، (٩٤/٢).

(٩) هيام صالح أبو الفرج: مجتمع دمشق ودوره السياسي في عصر الدولة المملوكية الثانية (٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م)، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص١٩٤.

(١٠) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (٣٣٩/٣).



تتعرّض لتزييف في الوزن والعيار بشكل مخلّ نتيجة للسياسة السيئة التي انتهجها بعض سلاطين المماليك(١).

وقد ساءت أحوال الناس بسبب كثرة الزّغل(٢) في الفلوس، وهي العملة التي كان يتمّ التعامل بها بالعدد، حيث يُدفع عن كل درهم من الفضة ثمانية وأربعين فلسًا من الفلوس التي تضرب بدار الضرب الرسمية، ووصل الأمر بالزّغلية أن ضربوا فلوسًا خفيفة الوزن خارج دور الضرب على غرار العملة الرسمية، ومن أمثلتها العملة المضروبة في دمشق والمعروفة بـ "القراطيس"(٣)، فالقراطيس عند انتقالها إلى مصر مع التجار واختلاطها مع الفلوس الجيدة طغت على المعاملات المالية في الأسواق مما تسبب في إيذاء الناس بارتفاع الأسعار وإغلاق المحلات التجارية، وذلك عندما نودي بأن الفلوس التي تقبل في المعاملة هي فقط الفلوس التي عليها الخاتم الرسمي للدولة من دار السّك ، إلا أن ذلك لم يُثن الزغلية عن عمل فلوس عليها خاتم رسمي يشبه الفلوس الصادرة عن دار الضرب(٤).

وأما عامل **غلاء الأسعار** الذي أثّر سلبًا في ظهور الفئات الشعبية فقد ارتبط ببعض المتغيرات البيئية مثل ظهور الجراد وانحباس الأمطار ونشوب الثورات الداخلية والحروب الخارجية؛ ففي سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٧م ارتفعت الأسعار وبيع مكوك(٥) القمح بمائة درهم والشعير بستين درهم والبطيخ بثلاثين بثلاثين درهمًا، وكان السبب في ذلك وباء انتشر في البلاد. وبعد ذلك بثلاث سنوات أصاب بلاد الشام غلاءٌ شديدٌ حيث وصلت الغرارة(٦) من القمح والشعير إلى مائتين وخمسين درهمًا، وكان سبب ذلك هو اقتحام المغول لبعض مدن الشام(٧). وفي سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م تسببتْ قلة سقوط الأمطار وجفاف الأراضي الزراعية إلى غلاء الأسعار حتى وصل سعر غرارة القمح إلى مائتين وعشرين درهمًا، وكان من شدة القحط والجفاف في بلاد الشام أن وصل الحال بأن نُسقى الدابة بدرهم شربة واحدة، ويسقى الرجل بربع درهم شربة واحده أيضًا(٨).

٢- الكوارث الطبيعية والأوبئة: وقد حلّت بالمجتمع الشامي في العصر المملوكي جُملة من النكبات الطبيعية والأوبئة أدت إلى ظهور طبقة الفئات الشعبية إضافة إلى وفاة كثير من العامة والخاصة، ولعلّ من هذه الكوارث :

أ- الزلازل: حدثت في بلاد الشام كثير من الزلازل المدمرة، ومنها على سبيل المثال زلزال سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م الذي ضرب نيابتي غزة والكرك واعتُبر أعنف زلزال ضرب المنطقة بسبب ما خلفه من دمار كبير في المباني، حيث كان الأنكى في النتيجة أن كثير من تلك المراكز العمرانية التي دمرتها الزلزال أُهملت وهُجرت من السكان لعدم قدرتهم على إعادة البناء(٩). كما حدثت سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م زلازل عديدة شملت مصر وبلاد الشام وأحدثت خسائر كبيرة وصلت إلى هدم المساجد وغرق المراكب،

---

(١) كرم عبد الله محمد النوايسة: زيف النقود في عصر دولة المماليك البرجية (٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨٣-١٥٥١م)، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الإسلامي، جامعة مؤتة، الأردن، ص٢١.

(٢) الزّغل: الغشّ، وفي النقود تُطلق غالبًا على الفلوس المضروبة من النحاس. انظر: السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ص٢٠٢.

(٣) القراطيس: هي نوع من الفلوس النحاسية أو دراهم ملفوفة على شكل أصبع تعامل بها أهل الشام. انظر: النويري: نهاية نهاية الأرب في فنون الأدب، (٣٣٢/٣٢)؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (٤٣٩/٣).

(٤) كرم النوايسة: زيف النقود في عصر دولة المماليك البرجية، ص٤٢.

(٥) المكوك: مكيال قديم يختلف مقداره باختلاف اصطلاح الناس عليه في البلاد، وقيل يسع صاعًا ونصف الصاع. مصطفى الزيات وآخرون: المعجم الوسيط، (٨٨١/٢).

(٦) الغرارة: مكيال خاص بأهل الشام تحديدًا ، يقدّر بحوالي ١٢ كلغ أو ٧٢ مدًّا أو سبع ويبات مصرية. وأما الغرارة المكية المكية فتقدّر بـ ٢٠٤,٥ كلغ أو ٢٦٥ لترًا. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (٢٨١/٤).

(٧) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (٤٩٨/١).

(٨) المصدر نفسه، (٩٨/٢).

(٩) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، (٣٦/٨).



فتمّ انتداب أمراء النيابات لإصلاح ما هدمته الزلازل(١). وقد أدّت هذه الزلازل إلى موت أعداد كبيرة من السكان فانخفضت الكثافة السكانية في بلاد الشام(٢)، وتشرد من السكان أعداد كبيرة بحيث أصبحوا ضمن الفئات الشعبية.

ب- آفة الجراد: كان لانتشار أسراب الجراد في بلاد الشام أثرٌ بالغ في ارتفاع أسعار الحبوب خاصة بسبب إتلافه للزرع، وقد أفادت المصادر التاريخية أن الجراد أصاب بلاد الشام ثماني عشرة مرة؛ عشرة منها كانت في العصر المملوكي الأول (٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨١-١٥١٦م)، وثمانية في العصر المملوكي الثاني (٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨١-١٥١٦م)(٣). ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م عندما تعرضت تعرضت فلسطين لموجة من الجراد بكميات كبيرة سدت الأفق وألحقت الدمار بالزراعة والأشجار مما تسبّب في تدهور الأحوال الاقتصادية، ومنها سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٤م عندما اكتسحت أسراب الجراد بلاد الشام وانتشرت في جميع الأنحاء وأكلت الأشجار والزروع والثمار فقضت على الأخضر واليابس(٤). وفي سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٥م أبادت أسراب الجراد أعدادًا كثيرة من الأشجار والكروم والمزروعات الجيدة، فنتج عن ذلك ارتفاع الأسعار حيث بلغ سعر غرارة القمح بدمشق مائة وثمانين درهمًا(٥).

ج- الظروف المناخية الصعبة: والمقصود بذلك القحط والجفاف والسيول؛ ومن أمثلة ذلك بالنسبة للسيول ما حدث سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٢م عندما اجتاحت السيول نيابة غزة فهُدمت كثير من البيوت على السكان وتلفت الزروع من كثرة المياه(٦). ومنها ما حدث سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م حين هطلت أمطار غزيرة على بلاد الشام نتج عنها تدمير كثير من المزروعات وإلحاق أذى كبير بالمنازل والممتلكات، والغريب أنه في نفس العام أجدبتْ مناطق أخرى من بلاد الشام بسبب عدم سقوط الأمطار فهجرها كثير من السكان بسبب قلة الطعام والشراب(٧). وأما القحط والجفاف فقد تعرّضت له المنطقة مرات عديدة؛ فمن ذلك ما حدث في سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م عندما أصاب البلاد الشامية قحط وجفاف نتج عنه موت خلق كثير في كل أرجاء نيابتي حلب وحماة وغيرهما(٨). ومنها ما وقع سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م عندما أصاب القحط فلسطين خاصة، حيث مضى معظم فصل الشتاء ولم تسقط الأمطار، فصام الناس ثلاثة أيام ولجأوا إلى المسجد الأقصى للصلاة والدعاء والذكر وطلب الغيث من الله تعالى(٩).

د- الأوبئة: ولعلّ أخطر الأوبئة التي أصابت مناطق عديدة من العالم الإسلامي ومن ضمنه بلاد الشام هو الطاعون المهلك الذي انتشر بين الناس سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، وقد أطلقت عليه المصادر التاريخية العربية(١٠) عبارة "الفناء الكبير" أو "الطاعون الأعظم"، وعُرف في المصادر الأوروبية بـ "الموت

---

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، (٤٠٦/٥). وللوقوف على المزيد في هذا المجال انظر: خالد يونس الخالدي: الزلازل في بلاد الشام ، من القرن الأول إلى القرن الثالث الهجري/القرن السابع إلى القرن التاسع الميلادي، مجلة الجامعة الإسلامية، مجلد ١٣، العدد الأول، يناير ٢٠٠٥م، ص٨٧ وما بعدها.

(٢) محمود عليّ عطا الله: نيابة غزة في العهد المملوكي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص١٥٣.

(٣) فيصل عبد الله بني حمد: العوامل المؤثرة في تذبذب أسعار المواد الغذائية في بلاد الشام خلال العصرين المملوكيين الأول (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨١م) والثاني (٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨١-١٥١٧م)، أوراق بحثية ودراسات إسلامية، عمان، الأردن، بتاريخ ٢٠٠٧/٨/٢م.

(٤) الذهبي: محمد بن أحمد الدمشقي (ت٧٤٨هـ/١٣٧٤م): من ذيول العبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبعة الكويت الحكومية، الكويت ، (د.ط)، ٢٠١١م، (٣٧٩/٦).

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، (١٩٩/٥).

(٦) ابن كثير: البداية النهاية، (٢٠٦/١٤).

(٧) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (٣٤٨/٧).

(٨) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، (٣٣/١٦).

(٩) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (٢٦٣/٤).

(١٠) ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، (٣١٨/٧).



الأسود back death"[١]؛ فقد أهلك كثير من السكان والدواب وأجبر الناجين منه إلى الهجرة خارج البلاد فأصبحت المدن والقرى خالية[٢]. وفي سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٧م انتشر وباء آخر للطاعون عمّ معظم أنحاء بلاد الشام، خاصة مدن الساحل الشامي وبعض المدن الداخلية كعكّا ونابلس وبيت المقدس والكرك، فبلغ عدد الموتى خمسمائة إنسان في كل يوم، ومات على إثره في غزة اثنان وعشرون ألف شخص حتى خلت البلاد تقريبًا، حتى قيل أن اللّص حين يدخل البيت لسرقته فإنه لا يخرج ويموت من فوره بداخله[٣]!. كما تعرّضت بلاد الشام لطاعون آخر سنة ٨٢٦هـ/١٤٢٢م، حيث قدّر المقريزي أعداد الموتى في اليوم الواحد بحوالي مائة إنسان، وذهب ضحيته في مدينة دمشق وحدها أكثر من ١١٥ ألف شخص معظمهم كانوا من الأطفال والنساء[٤].

كما صاحب ظهور هذه الطواعين تفشي عدد من الأمراض المعدية بين السكان بسبب الإهمال الصحي الناتج عن الفناء الاجتماعي والضعف الاقتصادي الذي خلّفته الأوبئة، ومن هذه الأمراض خاصة مرض الجدري ومرض الجرب اللذان انتشرا في بلاد الشام سنة ١٤٩٨/٩٠٤م وسنة ٩٠٩هـ/١٥٠٣م، لاسيما في مدينة بيروت[٥]. وقد عاود المرضان انتشارهما سنة ٩١٧هـ/١٥١١م ولم يُرفعا إلاّ بعد سنتين[٦]، غير أن هذين المرضين قد أظهرا تأثيرًا واضحًا في نقص وتقلص وتوقف النمو السكاني، فالأطفال الذين يولدون يموتون بعد ولادتهم في يوم أو يومين على الأكثر[٧]. وعلى العموم فإن فإن انتشار الأوبئة وتتابع وقوعها في فترات متقاربة كان يرافقه دومًا غلاء في الأسعار وندرة في السّلع وتعطّل في الأسواق[٨]، بسبب الخلل الذي أصاب البنية السكانية لبلاد الشام، فانعكست آثارها على مختلف ميادين الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعلمية[٩]. والذي لا شكّ فيه أن هذه الأوبئة والأمراض زادت من أعداد المهمشين من الفقراء والمعدمين والأيتام ضمن الطبقة الشعبية التي كان لها دورها الكبير في تاريخ بلاد الشام.

ثالثًا: العوامل الاجتماعية:

كان للعوامل الاجتماعية أثرها البالغ في ظهور الطبقة الشعبية في بلاد الشام خلال العصر المملوكي وذلك نتيجة لما تعرضت له هذه الفئة من ظلم وقسوة ومصادرة وتنكيل وتعذيب على يد بعض أفراد السلطة المملوكية، الذين بالغوا في الإساءة إلى عامة الناس فظهرت هذه الطبقة التي صارت مصدر قلق في زعزعة نظام الحكم في هذه الدولة[١٠]، وهذا ما عبّر عنه ابن خلدون بقوله: "إن الملك إذا كان قاهرًا باطشًا بالعقوبات، منقبًا عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم، شملهم الخوف والذل ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة، فتخلّقوا بها وفسدت بصائرهم وأخلاقهم، وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات، ففسدت الحماية بفساد النيابات وربما أجمعوا على قتله (أي الحاكم)، لذلك تفسد الدولة ...،

---

(١) مجموعة مؤلفين: الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع (شارك فيها مجموعة كبيرة من المفكرين وأهل العلم العرب والمسلمين وغيرهم)، الرياض، ط٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، (٢١١/١٩).

(٢) مبارك محمد الطراونة: الأوبئة (الطواعين) وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨٢م-١٥١٦م)، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد الرابع، العدد الثالث، ص٢٢.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، (٤٦٣/٢).

(٤) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (٧٨/٧).

(٥) بيروت: مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام (البحر الأبيض المتوسط)، تعدّ من أعمال دمشق، بينها وبين مدينة صيدا صيدا ثلاثة فراسخ. ياقوت الحموي: معجم البلدان، (٥٢٢/١).

(٦) ابن طولون: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ص٣٥٧.

(٧) مبارك الطراونة: الأوبئة (الطواعين) وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام، ص٥٣.

(٨) يوسف درويش غوانمة: الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب الشام (الأردن وفلسطين) في العصر المملوكي، مجلة علوم فصلية، العدد ١٣-١٤، دمشق، ١٩٨٣م، ص٧٥.

(٩) مبارك الطراونة: الأوبئة (الطواعين) وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام، ص٥٣ .

(١٠) يوسف درويش غوانمة: دمشق في عصر دولة المماليك الثانية، دار الفكر ناشرون وموزعون، عمان، ط١، ٢٠٠٥م، ص١٠٥.



وإذا كان (الحاكم) رقيقًا بهم (الرعية) متجاوزًا عن سيئاتهم استمالوا إليه ولاذوا به وأُشربوا محبته، واستماتوا دونه في محاربه أعدائه، فاستقام الأمن من كل جانب"[١].

والمتأمل في التاريخ المملوكي يرى ذلك بوضوح؛ فالثقة بين الحاكم وأعوانه شابها كثير من الاضطراب وعدم الثقة؛ فالسلطان كان أول اهتمامه عندما يصل إلى الحكم الانتقام من الخصوم بأبشع وسائل التعذيب، فتقسوا القلوب وتتفنّن النفوس في إيقاع العقوبة وتنفيذها بطرق بشعة، والتي كانت في أغلب الأحيان ليس من أجل تحقيق العدالة والحق وإنما لإرهاب الشعب وإشغاله[٢]. وكانت من أبرز تلك تلك العقوبات وأقساها: **"التّوسيط"**؛ وهو قطع الشيء نصفين[٣]، وهو نوع من القتل بضرب المحكوم عليه بالسيف بقوة تحت السرّة لقسم الجسم إلى نصفين[٤]. وكانت السلطة تلجأ إلى هذا الأسلوب في إعدام إعدام أعداد كبيرة من السجناء الذين يقبض عليهم بعد إخماد فتنة أو محاولة قطع الطريق من طرف الزعر أو العربان[٥]. وممّن وُسّط من أفراد الطبقة الشعبية ذلك الفقير الصوفي[٦] الذي أعدم بهذه الطريقة الطريقة سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م، وكان هذا الرجل معروفًا بالشرّ والفضول وقام بتزوير كتاب يتهم به شيخ الإسلام ابن تيمية[٧] وجماعة من الأمراء والخواص بأنهم يناصحون المغول ويكاتبونهم[٨].

ومن تلك العقوبات كذلك **"التّسمير"**؛ وهو نوعٌ من الصلب على صليب من الخشب أو على أداة تسمى التّسمير[٩]، وتدق أطراف المحكوم عليه بالمسامير إلى الخشب ، فيبقى المُسمّر ساعات أو أيام حتى يموت، وهو ما يُسمّى بتسمير الهلاك[١٠]، وقد يفكّ منه التسمير ويعفى عنه ويسمى حينئذ بتسمير التعزيز والتأديب[١١]. وقد كان التّسمير من وسائل التعذيب الشائعة في العصر المملوكي ولم تسلم منه حتى النساء[١٢]. ومن الأمثلة على مثل هذه العقوبة أن السلطان محمد تبن قلاوون أمر بتسمير أحد المحتالين الذي صنع ملحمة وخدع بها أحد مماليك الناصر وأوهمه أنه سيصبح ملكًا، فسُمّر المحتال وأرسل على جمل إلى دمشق ثم جالوا به المنطقة حتى وصلوا إلى نهر الفرات فألقوه فيه[١٣].

ومن العقوبات **"التّشهير"**؛ وهو في اللغة إذاعة السوء[١٤]، وأما في مصطلح العصر المملوكي فهو الطواف بالمحكوم عليه في الشوارع راكبًا على جمل أو حمار والمناداة عليه بما يكره من عيوب

---

(١) ابن خلدون: كتاب العبر، (١٨٥/١).
(٢) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١١١.
(٣) الرازي: مختار الصحاح، ص٣٣٨ .
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، (٢٣٨/١٤)؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (٤٠٤/١)، حاشية ٣.
(٥) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (٦٨٦/٢).
(٦) لم أهتد إلى معرفة اسم هذا الصوفي المعادي لشيخ الإسلام ابن تيمية، وربما يكون من أفراد الطبقة الشعبية المغمورين. المغمورين.
(٧) هو تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الدمشقي، الملقّب بشيخ الإسلام. كان إمامًا حافظًا مجتهدًا متبحرًا في علوم الديانة، موصوفًا بفرط الشجاعة والكرم. توفي بدمشق سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م عن ٦٧ سنة. انظر ترجمته في: الذهبي: محمد بن أحمد الدمشقي (ت٧٤٨هـ/١٣٧٤م): تذكرة الحفاظ، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، (٨٣٣/٥)؛ ابن ناصر الدين: محمد بن عبد الله الدمشقي (ت٨٤٢هـ/١٤٣٨م): الرّد الوافر على من زعم أن من سمّى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر، تحقيق: زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٣٩٣هـ، ص٣ وما بعدها .
(٨) ابن كثير: البداية والنهاية، (٢٢٠/١٤).
(٩) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، (١٨٤/١١).
(١٠) محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ص٤٥.
(١١) عبد الرؤوف جبر القططي: السجون في مصر وبلاد الشام في الدولتين الأيوبية والمملوكية ٦٧٦-٩٢٣هـ/١١٧١-١٥١٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص١٤١.
(١٢) المرجع نفسه، ص١٤٢.
(١٣) ابن حجر: الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، (١٥٤/٢).
(١٤) مصطفى الزيات وآخرون: المعجم الوسيط، (١٤٩/١).



ونقائص، وفي نهاية المطاف يضرب وسط الناس بالسياط عقابًا له على ذنبه[١]. ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م حيث شُهّر برجل من دمشق تعاون مع المغول وصار يدلّهم على الطرقات[٢]. وكان العوام يتعرضون للمشّهر بهم ويهينونهم، وربما يضربونهم بالأحذية ويسمعونهم ما يكرهون[٣].

وإلى جانب ما ذُكر، كان هناك أنوع أخرى من طرق التعذيب التي كان يمارسه الحكام المماليك؛ منها العَصْر[٤]، والتّكحيل[٥]، والتّسميل[٦]، وقلع العين، والتّسعيط[٧]، إلى جانب الضرب على أجزاء من من الجسم باستخدام المقرعة أو العصا أو الدرّة[٨]، وغيرها من وسائل التعذيب[٩] القاسية التي مارستها السلطة المملوكية والتي تقشعر لوصفها الأبدان، وهي وسائل ليس لها أي مسوغ شرعي في الشريعة الإسلامية، بل تنافي تعاليم الدين الاسلامي وتهدر الكرامة الانسانية، لأن النبيّ ﷺ نهى عن التعذيب بقوله: "إن الله يعذّب الذين يعذّبون الناس في الدنيا"[١٠].

ومن العوامل الاجتماعية الأخرى التي ساعدت على ظهور الطبقة الشعبية وترسيخ ما يُعرف بالظلم اجتماعي **المصادرات**[١١] التي كانت تفرضها الدولة ضد الطبقة الشعبية على أشكال متنوعة ومتغيرة، وكان المصادرات تتغير مع تغير السلاطين، إلا أنها كانت منتشرة انتشار النار في الهشيم، حيث كانت لا تدع أحدًا إلا ولحقه قدر منها[١٢]. وهذه المصادرات إما أن تكون فردية ضد شخص أو تكون جماعية ضد مجوعة أشخاص أو قرى[١٣]، ومع تدهور الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في الدولة المملوكية أصبحت المصادرات من أهم السّمات العامة للمجتمع في بلاد الشام خلال هذه الحقبة[١٤]، حيث أسهمت في ظهور الطبقة الشعبية وتفشّي البطالة بين الناس والظلم والاجحاف بالرعية

---

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، ص١٩٨. وانظر: يوسف غوانمة: دمشق في عصر دولة المماليك الثانية، ص١٠٦.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، (٣٥٤/٤).

(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (٢١٥/٢).

(٤) سعود محمد العصفور : وسائل التعذيب في العصر المملوكي، مكتبة ابن قتيبة، المنصورة ، (د.ط)، ١٤٢٠هـ، ص٨٧.

(٥) التكحيل: هو كيّ مواضع الكحل - وهي فوق منابت الأشعار - بمرود ونحوه بعد تصليبه بالنار. محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص٤٨.

(٦) التسميل: هو فقع العين بمسمار أو حديدة محماة، وقد يكون بالشوك أيضًا. انظر: ابن منظور: لسان العرب، (٣٤٥/١١)، مادة "سمل".

(٧) التّسعيط: هو إدخال الدواء أو الماء والخل والجير في أنف المذنب. الفيروز آبادي: محمد بن يعقوب الشيرازي (ت٨١٧هـ/١٤١٥م): القاموس المحيط، مؤسسة الرّسالة، مكتب تحقيق التراث، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٣٧٧.

(٨) السخاوي: محمد بن عبد الرحمن المصري (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م): التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ص٣٥٠.

(٩) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظر: سعود بن محمد العصفور: وسائل التعذيب في العصر المملوكي، ص٦٢-٩٥؛ عبد الرؤوف القططي: السجون في مصر وبلاد الشام في الدولتين الأيوبية والمملوكية، ص١٣٣-١٥٦.

(١٠) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب البرّ والصلة والآداب، باب: الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق، حديث رقم ٢٦١٣، من رواية هشام بن عروة عن أبيه عن هشام بن حكيم بن حزام عن أبيه أنه مر بالشام على أناس وقد أقيموا في الشمس وصُبّ على رءوسهم الزيت فقال: ما هذا؟ قيل يعذبون في الخراج، فقال: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول، الحديث.

(١١) أثبت الدراسات أن ظاهرة المصادرة هي ظاهرة قديمة ترجع البدايات إلى عهد الدولة الأموية وتحديدًا في عهد معاوية معاوية بن أبي سفيان ﷺ حين صادر تركة عامله على العراق زياد بن أبيه، وقدر المبلغ المصادر بستة ملايين درهم. ولم يكن العهد العباسي أقلّ مصادرة للأموال من العهد الذي سبقه، واستمرت هذه الظاهرة إلى العهد العُبيدي (الفاطمي) ثم الأيوبي. البيومي إسماعيل الشربيني: مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م، (٢٣/١-٣٦).

(١٢) غسان محمد علي العزام: المصادرات في بلاد الشام في الدولة المملوكية الأولى ٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن، ٢٠١٤م، ص٤٢.

(١٣) يوسف غوانمة: دمشق في عصر دولة المماليك الثانية، ص١٠٩.

(١٤) البيومي الشربيني: النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، ص٢٠٦.



لكثرة الضرائب المفروضة عليهم من قبل الحكام، فقد صارت المصادرات سياسة متبعة من طرف الدولة، حيث كان المستفيد الأول من ورائها هم السلاطين الذين ينفقون تلك الأموال على حاجاتهم المختلفة، وما بقي منها يعود إلى بيت المال[١].

ولعلّ من أشهر هذه المصادرات ما حدث سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣م عندما علم السلطان الظاهر بيبرس بتحرّك المغول لغزو بلاد الشام في هذه السنة، فأمر بتحرك الجيش المصري إلى بلاد الشام، وأمر كل شخص يمتلك فرسًا أن يجهز به الجيش، وأن كل قرية بالشام مطالبة بتجهيز الخيالة على نفقتهم الخاصة[٢]، وهو ما حرم هؤلاء العوام من نفقات قوتهم وحرمهم من حيواناتهم التي بها يستخدمونها في حياتهم العامة. ومن أشهر هذه المصادرات التي حدثت في بلاد الشام كذلك، ما فعله نائب دمشق الأمير سُنجر الحلبي الذي سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م عندما قام بتحصيل الأموال بمدينة دمشق بطريقة مجحفة بحجة إعادة بناء مدينة طرابلس بعد تحريرها من الصليبيين، فقام بمصادرة أملاك وزير الشام تقي الدين توبة[٣] توبة[٣] وأجبر الناس على شرائها بأغلى الأثمان حتى جمع من ذلك خمسمائة ألف درهم، فخاف منه الناس وفرّ كثير منهم خارج دمشق[٤]، وقبل سنتين من مقتل الأمير سُنجر، قام بهدم وتخريب العديد من المباني في مدينة دمشق[٥]، ولما قُتل سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م طيف برأسه الأسواق وقام العامة من الطبقة الشعبية بضرب وجهه بالحذاء[٦]، وإن كان هذا التصرف لا يليق بميّت مسلم إلا أنه يُظهر مدى قسوة الظروف الاجتماعية التي عاشها الشعب خلال فترة حكمه. وكان بعض الأمراء يصادر الأموال من نقد ومتاع ودواب من ضعفاء العامة ليهديها فيما بعد لأمراء آخرين كعطايا وهدايا ليضمن ولاءهم ويرسّخ طاعتهم، من ذلك ما فعله الأمير منطاش حين صادر كثيرًا من الحمير والبغال والطواحين والأموال ثم غمر بها الأمراء ليضمن ولائهم[٧].

كما شملت المصادرات كذلك فئة "الفلاحين"؛ فقد ذكر مؤرخو تلك الحقبة حال أهالي دمشق لما اتّسع نطاق المصادرة سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م بحجة إعادة إعمار قلعة دمشق، حيث تعدّى الأمر بعد أخذ أموال التجار إلى أخذ أموال الأوقاف[٨]، فكانوا في شدة حال لكثرة ما يُجبى منهم؛ ومن ذلك ما حدث سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م عندما صادر الأمير شيخ المحمودي[٩] عددًا من أملاك الفلاحين في نيابة صفد[١٠] بعد تمرّده على السلطة بالقاهرة طمعًا في اعتلاء العرش[١١]، وكان أتباعه من الجنود يقومون بنهب

---

(١) يوسف غوانمة: دمشق في عصر دولة المماليك الثانية، ص١١٠.

(٢) بدر الدين العيني: محمود بن أحمد اليمني (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٧م، (١١٢/٢).

(٣) هو الصاحب أبو البقاء تقي الدين توبة بن عليّ بن مهاجر التكريتي الربعي التكريتي، المعروف بالبيع. تنقل في الخدمة الخدمة السلطانية إلى أن صار وزيرًا بدمشق لخمسة سلاطين. كان كاتبًا كاملاً في فنه، وافر الحشمة والغلمان. توفي بدمشق في جمادى الآخرة سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م عن ٧٨ سنة. انظر ترجمته في: ابن كثير: البداية والنهاية، (٦/١٤)؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (٤٣٢/٢).

(٤) كامل حسين الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، حلب، ط٢، ١٤١٩هـ، (١٤٥/٣).

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، (٣٤٩/١٣).

(٦) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (٢٤٥/١٢).

(٧) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، (١٠٧/٣١).

(٨) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (١٨٠/٦)؛ ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، (٧٦٨/١).

(٩) هو الملك المؤيد أبو النصر شيخ بن عبد الله الجركسي المحمودي الظاهري. ترقّى في المناصب إلى أن تولّى الأتابكية سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م ثم السلطنة في السنة نفسها. كان شجاعًا وافر العقل، غير أنه كان سفاكًا للدماء، مُصادرًا للرعية. توفي بالقاهرة سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م عن ٦٥ سنة. انظر ترجمته في: ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر ، (٤٣٥/٧)؛ ابن تغري بردي: يوسف بن عبد الله الأتابكي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م): مورد اللطافة في من وُلّي السلطنة والخلافة، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م، (١٣٦/٢).

(١٠) صفد: في اللغة الصفد هو العطاء، وكذلك يُطلق على الوثاق، وصفد: مدينة في جبل عامل بلبنان مطلة على حمص. ياقوت الحموي: معجم البلدان، (٤١٢/٣).

(١١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (٤٣٢/٤).



وسلب القرى التي يمرون بها، فارتكبوا القبائح والمنكرات وعاقبوا الفلاحين(١). وفي سنة ٩٠٥هـ/١٥٠٠م صادر نائب دمشق القمح من الفلاحين(٢)، وقد نتج عن هذه المصادرة أن اضطرّ معظم السكان الذين مسّتهم المصادرة إلى ترك أراضيهم والهجرة إلى المدن(٣).

ومن العوامل الاجتماعية الأخرى التي أدّتْ إلى ظهور الطبقة الشعبية في بلاد الشام خلال هذه الحقبة؛ أسلوب **السُّخرة**(٤) الذي عانت منه الطبقة الشعبية في معظم فترات الحكم المملوكي، حيث كان ولاة الأمر لا يجدون حرجًا في تسخير هؤلاء العوام من العمال والفلاحين في أعمال البناء والترميم عن طريق السُّخرة والإجبار والتعرّض لضروب من الظلم والامتهان(٥). ولم يكن السلاطين فقط من يستخدم العامة في أعمال السُّخرة، بل حتى النواب الأمراء كانوا يجبرونهم عليها دون شفقة أو رحمة لأجل بناء القلاع والمدارس والجوامع؛ ففي سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م أجبروا العامة على العمل في إعادة تحصين قلعة دمشق، واستعانوا في ذلك بما يملكه الفلاحون من أبقار وأدوات البناء والزراعة لتنفيذ هذا العمل وبعض الأعمال الأخرى الشاقة(٦). وفي سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م خرج نائب السلطنة الأمير سيف الدين بيدمر(٧) لإصلاح منارة المدرسة السلطانية بعد سقوطها، فأحضر خلقًا كثيرًا من فلاحي المرج(٨) والغوطة(٩) وأجبرهم على القيام بهذه المهمة(١٠).

وكان الأمر عندما تتقرّر السخرة أن يقدم الجنود ليأخذوا الناس من الجوامع والأسواق إلى أماكن العمل مقيدين بالحبال، وكان الرجل منهم لشدّة العمل وقسوته يخرّ إلى الأرض ثم يعجز عن الحركة ويموت من ساعته(١١). ويبدو للباحثة أن بعض أساليب السخرة هذه كانت تتمّ دون علم السلاطين والنواب، ومن ذلك ما حدث سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م عندما علم السلطان محمد بن قلاوون بهذا الأمر، فأصدر مرسومًا قرّر من خلاله إلغاء السُّخرة وإطلاق سراح المسجونين وأن لا يؤخذ من كل واحد إلا نصف درهم(١٢).

ومن العوامل الاجتماعية كذلك جريمتي **الرّشوة والاحتكار؛** فأما **الرشوة** - أو البرطلة(١٣) - فقد كانت من أشدّ مظاهر الفساد الإداري وعوامل الانحلال الخلقي في الدولة المملوكية(١)، وكان يلجأ إليها

---

(١) المصدر نفسه، (٤٣٤/٤).

(٢) ابن طولون: محمد بن عليّ الحنفي (ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م): إعلام الورى بمن وليّ نائبًا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق: محمد أحمد دهمان، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص١٠٤.

(٣) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص٦٠.

(٤) السُّخرة: من التسخير، بمعنى كلّفه عملاً بلا أجرة أو كلفه ما لا يريد وقهره. وهي كلمة تحمل معاني القهر والاستغلال والاستغلال والاستهزاء. الرازي: مختار الصحاح، ص١٤٤.

(٥) حياة الحجي: أحوال العامة في حكم المماليك، ص٣٠٣.

(٦) إيرا مارتين لابيدوس: مدن الشام في العصر المملوكي، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٥م، ص١١٤.

(٧) هو الأمير سيف الدين بيدمر بن عبد الله البدري الخوارزمي. تنقل في النيابات إلى أن وقعت كائنة أحمد البرهان فقُبض فقُبض عليه فكان آخر العهد به حيث قتل سنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م. انظر ترجمته في: ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، (٣٠٣/١)؛ السبكي: عبد الوهاب بن عليّ الشافعي (ت٧٧١هـ/١٣٧٠م): طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤١٣هـ، (٢١٣/٣).

(٨) المرج: هو مرج ضاحية مدينة دمشق المجاور لغوطتها. محمد كرد عليّ: خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ط١، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، (٢٩٩/٦).

(٩) الغوطة: في اللغة تطلق على مجتمع النبات والماء، وهي اسم لغوطة دمشق الشهيرة. مصطفى الزيات وآخرون: المعجم الوسيط، (٦٦٦/٢).

(١٠) ابن كثير: البداية والنهاية، (٢٧٧/١٤).

(١١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، (٩٧/٩).

(١٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (١٠٤/١١).

(١٣) البراطيل: وهي لفظة من إنشاء العامة؛ وكأنه أخذ من البرطيل بمعنى الحجر المستطيل، فكأن الرّشوة حجر رمي به، أو شبهوه بالكلب الذي يرمى بالحجر، وقيل بمعنى المِعْول لأنه يُخرج به ما استتر، فكذلك الرشوة. الزبيدي: محمد بن محمد المرتضى اليمني (ت١٢٠٥هـ/١٧٩٠م): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الستار أحمد الفرّاج، دار



كل من أراد الوصول إلى منصب مرموق اجتماعيًّا بما في ذلك المناصب الدينية كالإفتاء والقضاء والحُسبة، وكذلك المناصب الدنيوية كالوزارة وولاية الأقاليم وسائر الأعمال(٢)، حيث أكّد المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٦١م) ذلك بقوله: "لا يمكن التوصل إلى الحاشي منها إلا بالمال الجزيل"(٣)، وقد وصف أحدهم حال حُكّام ذلك الزمان في أخذ الرشاوى ببيت شعري قال فيه:

فبَرْطِل إنْ أَرَدْتَ الأمْرَ يَمْشِي فما يَمْشِي إذًا إنْ لَمْ تُبَرْطِلْ(٤)

وتعود جذور هذه الظاهرة المدمرة للمجتمع المتحضّر إلى زمن دولة المماليك البحرية، وإن كانت موجودة قبل هذا العصر ولكن بشكل محدود للغاية، غير أنه تحديدًا في عهد السلطان الصالح إسماعيل(٥) الذي أنشأ لها ديوانًا خاصًا يعرف بديوان "البذل" أو "البراطيل"، ثم اتّسعت هذه الظاهرة بشكل واضح في دولة المماليك البرجية أيام السلطان الظاهر برقوق(٦).

وأما **الاحتكار** فيُقصد به احتكار السلع الضرورية ثم طرحها في الأسواق عند ندرتها كي تباع بأسعار مرتفعة، وهو ما فعله بعض سلاطين الدولة المملوكية في دورها الثاني (البرجي) لاسيما في عهد السلطان الأشرف برسباي(٧) - الذي كان شديد النّهم للمال - عندما احتكر ابتداءً من سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م - بواسطة بعض التجار - تجارة الكارم(٨) وخاصة سلعة الفلفل(٩)، ثم توسّع الأمر إلى احتكار صناعة السُّكر مما أدّى إلى ضعف الناس وانتشار الأمراض(١٠). وبلغ الأمر بأحد الأمراء بدمشق واسمه "جلبان" أن احتكر سنة ٨٤٣هـ/١٤٣٩م تجارة اللحم وصار هو من يتولّى أمر الذبيحة، فارتفع سعر اللحم في الأسواق واشتكى أهل دمشق إلى نائبها الذي لم يلتفت إلى شكواهم، ولما بلغ الأمر إلى السلطان في

احياء التراث العربي، بيروت، ١٣٦٥هـ/١٩٤٥م، (٧٦/٢٨)، مادة "برطل". وانظر: أحمد عبد الرزاق أحمد: البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك؛ دراسة عن الرشوة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ط)، ١٩٧٩م.

(١) يوسف غوانمة: دمشق في عصر دولة المماليك الثانية، ص١٢.

(٢) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص٢٥٦. وانظر: إحسان عباس: تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، ص٩٢.

(٣) المقريزي: أحمد بن عليّ القاهري (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م): إغاثة الأمة بكشف الغمة (أو تاريخ المجاعات في مصر)، مؤسسة ناصر للثقافة، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ص٤٣.

(٤) المستعصمي: محمد بن أيدمر البغدادي (ت٧١٠ هـ/١٣١٠م): الدر الفريد وبيت القصيد، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٣٦هـ/٢٠١٦م، (٢٠٤/٣).

(٥) هو الملك الصالح إسماعيل ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون التركي المصري. وُلّي السلطنة لما توجه الناصر أحمد إلى الكرك وأعرض عن المملكة فاتفق الأمراء على توليته في المحرم سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م. توفي في ربيع الآخر سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م عن ٢٠ سنة. انظر ترجمته في: الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، ص١٤٣؛ ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، (٢٦٥/٢).

(٦) نظير حسان سعداوي: صور ومظالم من عصر المماليك ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، (د.ط)، ١٩٦٦م، ص٢٧؛ إحسان عباس: تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، ص١٩٢.

(٧) هو الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين برسباي الدقماقي الظاهري الجركسي. ترقّى في المناصب العسكرية والإدارية إلى أن تسلطن سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م. كان ملكًا مبجلاً منقادًا للشريعة، يحبّ أهل العلم ويرنو للجهاد. توفي بالقاهرة سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م. انظر ترجمته في: المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، (٤٤٠/٣)؛ ابن تغري بردي: مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، (١٥١/٢).

(٨) الكارم: هي تجارة التوابل والبهارات الهندية المنسوبة إلى فئة من كبار التجار كان معظمهم في الأصل من بلاد الكانم الإسلامية التي تقع بالسودان الغربي ، فنُسبوا إلى أصلهم الجغرافي بعد تحريفه إلى الكارم، وقاموا باحتكار تجارة البهار والفلفل والقرنفل وغيرها من السلع الأخرى الضرورية والمرتفعة الثمن التي تجلب من الهند والشرق الأقصى. وبلغ هؤلاء التجار أوج قوتهم ونفوذهم في العصرين الأيوبي والمملوكي. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (٣٢/٤)؛ حسنين محمد ربيع: وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي لموانئ الحجاز واليمن في العصور الوسطى، مقال في الكتاب الأول من مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الجزء الثاني، الرياض، (د.ط) ، ١٩٧٩م، (٢٣/٢).

(٩) نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ط)، ١٩٧٣م، ص٣٣٥.

(١٠) هيام أبو الفرج: مجتمع دمشق ودوره السياسي في عصر الدولة المملوكية الثانية، ص١٩٣.



القاهرة أصدر مرسومًا بتقوية يد النائب والحطّ على أهل دمشق، وقُرئ المرسوم في جامع بني أمية بدمشق(١). ويزول العجب إذا علمنا أن كثير من الأمراء قد اشتروا مناصبهم العالية بالرشوة عن طريق دفع مبالغ كبيرة للسلطان، ثم لم يكن أمامهم سوى زيادة الضرائب والقسوة والاستغلال الذي لا يعرف الرحمة، خاصة اتجاه الطبقات الفقيرة(٢)، وفي ذلك يقول المقريزي: "...، وقد هلك أهل الريف بكثرة المغارم وتنوع المظالم، فتبدّلت أحوالهم وتمزقوا كل ممزق، وجلوا عن أوطانهم، فقلّت خيرات البلاد ومتحصّلها لقلّة ما يزرع بها ولخلوّ أهلها ورحيلهم عنها، بشدة الوطأة من الولاة عليهم وعلى من بقي منهم"(٣).

وصفوة القول، فإن هذه المظالم بكافة أنواعها كانت سببًا في تنامي أعداد الفئات الشعبية ومن ثمّ إسهامها بشكل أو بآخر فيما حدث في بلاد الشام من ثورات داخلية، ناهيك عمّن هجر أراضيه مضطرًا إلى أماكن أخرى هربًا من جور هذه المظالم وتبعاتها.

رابعًا: العوامل المذهبية:

بالرغم من أن غالبية سكان بلاد الشام في العصر المملوكي كانوا مسلمين - ما عدا بعض المناطق التي تواجدت فيها طوائف دينية قليلة كاليهود(٤) والنصارى(٥) وبعض الفرق المحسوبة على الإسلام كالدُّروز(٦) والنُّصيرية(٧) والإسماعيلية(٨) - إلا أن التنافس المذهبي بين فئات المجتمع الشامي قد أدّى إلى إلى حدوث مشكلات كبيرة في التعامل أضرّ ببعض طبقات المجتمع، وظهرت التفرقة الاجتماعية التي أسهمت في ظهور الطبقة الشعبية في هذه المنطقة. ومن خلال تتبّع تاريخ هذه المذاهب الفقهية، فإننا نجد أن أبرز هذه العوامل تتمثل في ما يلي:

---

(١) ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، (٢٢٢/٢).

(٢) إبراهيم زعرور: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة دمشق، دمشق، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص٢٠٦.

(٣) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص٤٤.

(٤) كان اليهود متواجدين بلاد الشام قبل العهد المملوكي حيث ذكر بنيامين التطيلي أن لهم بدمشق حارة يزيد عددهم فيها عن ثلاثة آلاف يهودي، وكانوا في حلب في حدود الألف وخمسمائة يهودي. انظر: التطيلي: بنيامين بن يونة اليهودي (ت٥٦٩هـ/١١٧٣م): رحلته، ترجمة: عزرا حداد، طبع المدرسة الوطنية، بغداد، (د.ط)، ١٣٦٥هـ/١٩٤٥م، ص١١٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، (٢١١/١٣).

(٥) كان ببلاد الشام - خاصة منطقة فلسطين والقدس تحديدًا - العديد من الطوائف النصرانية من لاتين وسريان ويونان ونساطرة ويعاقبة وموارنة وأرمن وجورجيين وفرنسيسكان، وكانوا في غالبيتهم من العرب أو من الناطقين بالعربية. كلود كاهن: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد الشيخ، دار سينا للنشر، بيروت، (د.ط)، ١٩٩٥م، ص٩٩.

(٦) الدروز: فرقة باطنية من غلاة الرافضة ، ينتسبون إلى محمد بن إسماعيل الدرزي (ت٤١١هـ/١٠٢٠م)، وقد انشق الدروز عن الاسماعيلية أيام الخليفة العبيدي الحاكم بأمر الله وعبدوه وذلك سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م. وأساس عقيدتهم هو إسقاط الفرائض الدينية التكليفية. وكانت أكثرية الدروز في العهد المملوكي في نيابة صفد في منطقة جبل الزابور. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشا، (١٥٨/٤)؛ أمين طليع: أصل الموحدين الدروز وأصولهم، دار الأندلس للطبع والنشر، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص٢٣.

(٧) النُّصيرية: فرقة من غلاة الرافضة الباطنية ينتسبون إلى محمد بن نصير النميري البصري (ت٢٦٠هـ/٨٧٣م). وهم يقولون بألوهية عليّ ﷺ والأئمة، ويمجدون عبد الرحمن بن ملجم قاتل عليّ ويستحلّون المحارم . وكانت أكثرية النصرية في العهد المملوكي في جبل كسروان ضمن نيابة طرابلس الشام. انظر: ابن كثير: البداية النهاية، (٣٧٨/١٣)؛ الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م): الملل والنحل، تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل، دار الفكر، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، (١٧٢/١).

(٨) الإسماعيلية: فرقة باطنية من غلاة الروافض الذين انتسبوا إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر (ت١٤٣هـ/٧٦٠م)، وكان ظاهرها التشيع لآل البيت ولكن حقيقتها هدم عقائد الإسلام. وعُرفوا بالباطنية لزعمهم أن لظواهر النصوص الشرعية من الكتاب والسُّنة بواطن خفية وأسرار ورموز وإشارات تخالف الظاهر. انظر: الشهرستاني: الملل والنحل، (١٩٢/١)؛ ابن حزم: عليّ بن أحمد الأندلسي (ت٤٥٦هـ/١٠٦٤م): الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ط)، ١٩٦٨م، (١٦٤/١).



١- التعصّب المذهبي(١): من المعروف تاريخيًا أن المذهب الفقهي الذي كان سائدًا في الدولتين الأيوبية والمملوكية - بما في ذلك معظم بلاد الشام - هو المذهب الشافعي ، وقد ظل الأمر كذلك إلى عهد السلطان الظاهر بيبرس الذي جعل سنة ٦٦٣هـ/٤٧م منصب القضاء على المذاهب السُّنيّة الأربعة بعد اختلافه مع القاضي الشافعي عبد الوهاب ابن بنت الأعز(٢)(٣). وقد تمّ تعزيز انتشار المذهب الحنفي في في عهد السلطان الظاهر برقوق وذلك في حدود سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، بالرغم من أن القضاء استمرّ وفق المذاهب الأربعة(٤). وقد ارتبط وجود المذاهب الفقهية الأربعة في الشام بإنشاء عدد المدارس لمحاربة التشيع وإحياء التوجّه السُّني(٥)، فكانت أغلب مدارس الشام تدرّس المذاهب الأربعة إلى جانب مدارس تخصّصت في تدريس مذهب معين أو مذهبين أو أكثر(٦).

والذي لا شكّ فيه أن المؤسسات الدينية والتعليمة قد تأثّرت تأثّرًا كبيرًا بالمذاهب السُّنية الأربعة(٧)، الأربعة(٧)، مما جعل الطلاب يتأثرون بميول معلّميهم المذهبية، وربما يتحول الطالب - وحتى المدارس أحيانًا - من مذهبه إلى مذهب آخر لمنافع دنيوية عاجلة، والتاريخ يعطينا أمثلة عديدة عن هذا التحول؛ فعندما قرّر الأمير يلبغا الناصري(٨) سبعة مدرسين للمذهب الحنفي بجامع ابن طولون وقرّر للطلبة شهريًا أربعين درهمًا وإردبًا(٩) من القمح، انتقل جماعة من الشافعية إلى مذهب الحنفية للحصول على هذه الامتيازات(١٠).

ونتيجة لهذا فقد ظهر نوعٌ من التعصب المذهبي(١١) بين بعض الناس من الطبقة الشعبية خاصة، ولم تسلم منه بعض المؤسسات الدينية من مساجد وغيرها، وكان من نتيجة ذلك أن عُطّلت صلوات،

---

(١) التعصب للمذهب: هو شدة التمسك به ونصرة اجتهاداته في كل ميدان. محمد رواس قلعجي وحامد صادق قنيبي: معجم لغة الفقهاء، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص١٣٦.

(٢) هو أبو محمد تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلامي اللخمي، الملقّب بابن بنت الأعزّ؛ نسبةً إلى القاضي الأعزّ وزير الملك الكامل الأيوبي، وهو جدّه لأمه. كان ثاقب الذهن ذا حدس صائب وعقل ونزاهة وتثبّت في الأحكام، وكان نزيهًا لا تأخذه في الله لومة لائم ولا يراعى أحدًا ولا يداهنه ولا يقبل شهادة مريب، ولا يقبل شفاعة أحد. توفي في رجب سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م عن ٧٧ سنة. انظر ترجمته في: السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، (٣١٨/٨)؛ ابن قاضي شهبة: أبو بكر بن أحمد الشافعي (ت٨٥١هـ/١٤٥٣م): طبقات الشافعية، تحقيق: الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ، (١٣٨/٢).

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى فى صناعة الانشا، (٣٦/٤).

(٤) خليل عثامنة: فلسطين في خمسة قرون من الفتح الإسلامي حتى الغزو الفرنجي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، (د.ط)، ٢٠٠٠م، ص٢٥.

(٥) سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص٣٤٩.

(٦) العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، (٣٤/١).

(٧) منصور إحميد سالم الصوفي: الأوضاع الدينية للمسلمين في الشام (٦٤٨-٩٢٢هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، كلية الآداب، قسم التاريخ والآثار، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص٩٨.

(٨) هو الأتابك يلبغا بن عبد الله الناصري العُمري الخاصكي الجركسي. أستاذ الملك الظاهر برقوق حيث اشتراه من تاجر الرقيق عثمان بن مسافر بمصر. كان شهمًا شجاعًا عاقلاً، محبًّا لأهل العلم، متعصّبًا للمذهب الحنفي، كثير البذل والصدقات. قتله مماليكه حقدًا عليه في حرب جرت بينه وبينهم وذلك في ربيع الآخر سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٦م. انظر ترجمته في: ابن حبيب: الحسن بن عمر الحلبي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م): تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين وسعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٦م، (٢٨٩/٣)؛ ابن شاهين: نيل الأمل في ذيل الدول، (٣٩٢/١).

(٩) الإردب: هو مكيال كبير لأهل مصر يساوي ٢٤ صاعًا بصاع النّبي ﷺ، أو ٦٤ منًّا بمنّ أهل مصر، وهو كذلك ست ويبات، وهو ما يساوي ١٥٠ كلغ تقريبًا. الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، (٤٩٣/٢)، مادة "ردب". مصطفى الزيات وآخرون: المعجم الوسيط، (١٣/١).

(١٠) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، (٣٢٢/١).

(١١) أفرز التعصب المذهبي والصراع الفقهي آثارًا خطيرة في ميادين الفكر والتربية، حيث في المجال الفكري ألزم أتباع كل مذهب بالاقتصار على مطالعة كتب مذهبهم فقط، والذين يخرجون عن تقاليد الانغلاق والتعصب وينفتحون على الآخرين يصبحون هدفًا للاتهام بالنفاق مهما كانت منزلتهم العلمية. انظر بهذا الخصوص: ابن رجب: عبد الرحمن بن



وأُزهقت نفوس، وجُمّدت علوم ومعارف، وكانت الطبقة الشعبية وقود ذلك، والأمثلة على هذه الاضطرابات كثيرة؛ ففي دمشق منع الحنابلة خصومهم من الشافعية الأشاعرة حضور الجُمع والجماعات وأغلقوا مساجدهم بسيف الإرهاب والقتل[١]. وبالمقابل نجد أن الحنابلة في مناطق أخرى من الدولة المملوكية قد أجبرهم خصومهم من الأشاعرة على ترك مدارسهم ومساجدهم وبقائهم في بيوتهم، بل وجُرّد بعض فقهائهم من كثير من المناصب وطُرد المدرسون من المدارس[٢]، ومثال ذلك ما أثاره بدمشق فقيه الشافعية علاء الدين البخاري[٣] ضد الحنابلة بسبب تعصبه الشديد ضد شيخ الإسلام ابن تيمية ورميه بالكفر، الأمر الذي أدّى إلى حدوث ملاسنات وصراعات فكرية بين الشافعية والحنابلة في معظم مساجد دمشق[٤]، ولا ريب أن طبقة العوام كانت الضحية الأولى لمثل هذه الصراعات المذهبية.

٢- انتشار التّصوف: شهد العصر المملوكي رواجًا في حركات التّصوف في بلاد الشام، فقد تسامح الحُكام مع المتصوفة وسمحوا لهم ببناء المؤسّسات المعمارية الصوفية، بل وخصّصوا لهم أوقافًا كثيرة[٥]، "حتى أن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه"[٦]، كما قال الرحالة ابن جُبير عن بلاد الشام؛ فالزوايا[٧] - على سبيل المثال - التي هي من أبرز مقرّات مشايخ الصوفية ومريديهم كانت منتشرة في معظم بلاد الشام خاصة في دمشق وحلب وبيت المقدس؛ ففي دمشق أُحصيت أكثر من خمس عشرة زاوية، وفي بيت المقدس وُجدت أكثر من ثلاث عشرة زاوية[٨]. وهكذا نجد أن السلطة المملوكية قد أنشأت تلك العمائر الدينة المذكورة آنفًا وأغدقت على مرتاديها من شيوخ ومريدين الأموال والأقوات وجعلت من تلك المباني مركز إيواء للفقراء والغرباء وعابري السبيل[٩]، ولهذا كثرت العمائر الدينية - في بلاد الشام خاصة وفي عموم أراضي الدولة المملوكية - ففاقت كل العصور الإسلامية السابقة في عددها[١٠]، حتى أن ابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) قارن في حديثه بين المساجد والمدارس

أحمد الحنبلي (ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م): الذيل على طبقات الحنابلة، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط١، ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م، ص٩٨ وما بعدها.

(١) منصور الصوفي: الأوضاع الدينية للمسلمين في الشام، ص١٠٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، (٤١/١٤). وانظر: خالد كبير علال: التعصب المذهبي في التاريخ، دار المحتسب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م، ص٤٣.

(٣) هو أبو عبد الله علاء الدين محمد بن محمد بن محمد البخاري العجمي الحنفي. رحل في طلب العلم ثم استوطن مصر سنين لينتقل بعدها إلى دمشق فأقام بها إلى أن توفي سنة ٨٤١هـ/١٤٣٨م عن ٦٢ سنة. انظر ترجمته في: السخاوي: محمد بن عبد الرحمن المصري (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، (٢٩١/٩)؛ ابن العماد: عبد الحي بن أحمد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار بن كثير، دمشق، ط١، ١٤٠٦هـ، (٢٤١/٧).

(٤) خالد علال: التعصب المذهبي في التاريخ، ص٩١.

(٥) عبد الحميد جمال الفراني: الأوقاف الإسلامية في فلسطين في العصر الإسلامي ١٥-٩٢٢هـ/٦٣٦-١٥١٦م، بحث مقدم إلى مؤتمر فلسطين الدولي للأوقاف الإسلامية ودورها في مواجهة التحديات الصهيونية الذي نظمته هيئة علماء فلسطين بالخارج بالتعاون مع دار الفتوى بالجمهورية اللبنانية بتاريخ ٢١-١٣ يوليو ٢٠١١م، (د.ن)، (د.ت)، ص٧ .

(٦) ابن جبير: محمد بن أحمد الكناني (ت٦١٤هـ/١٢١٧م): رحلته المعروفة بـالتذكرة بالأخبار عن اتّفاقات الأسفار، دار صادر، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٢١٤.

(٧) الزوايا: جمع زاوية؛ وهي شبيهة بالرباط والخانقاه إلا أنها أصغر، وهي أبنية في شكل دور أو مساجد صغيرة يقيم فيها المسلمون الصلوات الخمس ويتعبدون فيها ويعقدون بها حلقات دراسية في علوم الدين، كما يعقد فيها مشايخ الطرق الصوفية حلقات الذكر، وقد تكون الزاوية في ناحية من نواحي المساجد الكبرى. عبد الحميد الفراني: الأوقاف الإسلامية في فلسطين في العصر الإسلامي، ص٧؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٨٩.

(٨) انظر أسماء ومؤسّسي هذه الزوايا في: منصور الصوفي: الأوضاع الدينية للمسلمين في الشام، ص١٥٥-١٦٠.

(٩) عبد الجليل حسن عبد المهدي: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، مكتبة الأقصى، عمان، ط١، ١٩٨٠م، ص٢٠٣.

(١٠) أحمد صبحي منصور: العقائد الدينية في مصر المملوكية؛ بين الاسلام والتصوف، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، (د.ط)، ٢٠٠٠م، ص٣١.



والعمائر الصوفية، فذكر أن العمائر الصوفية فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (ت٧٤١هـ/١٣٤٠م) "أكثر من أن تُحصى، وأعزّ من أن تستقصى"(١). ومن هنا يظهر لنا جليًّا ما للمتصوفة من نفوذ اجتماعى فى تلك الحقبة التاريخية مكّنها من الوصول إلى مكانة مرموقة فى المجتمع الشامى، حيث أن كل طائفة كانت تتخذ مكانتها في مجتمعها بواسطة ما تقدمه من خدمات اجتماعية أو ما تملكه من قادة أجلاء(٢).

ولقد كان من عادة سلاطين المماليك تقريب العلماء ذوي الميول الصوفية خاصة، وهذا لإدراكهم مدى تأثير هؤلاء فى المجتمع المملوكى بسبب نفوذهم المباشر على الرأي العام نتيجة لاحتكاكهم المباشر بطبقات المجتمع واختلاطهم بهم من تجار وأصحاب حرف وغيرهم، هذا فضلاً عن اتصالهم بالطبقة الحاكمة(٣)، فمنذ عهد السلطان الظاهر بيبرس ثم المنصور قلاوون وهكذا إلى آخر سلطان من سلاطين هذه الدولة بقسميها البحري ثم البرجى، كانوا جميعًا من أنصار التصوف وممن يقرّبون مشايخ هذه الحركة إليهم(٤)، فقد وظّف الحكام التصوف بفعالية في ميادين الحياة المختلفة نظرًا لدور شيوخ التصوف التصوف الكبير فى التأثير على عامة الناس وقدرتهم على توجيههم وتحريكهم نحو الاتجاه الذي يؤيد سياسة أرباب نعمهم من السلاطين والأمراء، خاصة وأن السواد الأعظم من الرعية في تلك الفترة كانوا يقبلون على المتصوفة ويبالغون في احترامهم(٥).

ولمعرفة مدى تغلغل طرق الصوفية في البلاد الشامية يكفي الاطلاع على مظاهر التصوف في مدينة دمشق؛ فهذه المدينة كانت في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي مقرًّا لكثير من مشايخ الصوفية الذين ناصرهم العوام من أهلها بسبب سطوة المماليك وكثرة الفتن واختلال الأمن، عدا عن كثرة المجاعات والأوبئة، وهو ما دفع بكثير من الطبقة الشعبية إلى الدخول تحت نفوذ هؤلاء المشايخ(٦)، المشايخ(٦)، لاسيما وأن السلطة المملوكية الحاكمة - التي كانت تناصر المذهبين الشافعي والحنفي - كانت كانت على ميل كبير للتصوف والصوفية، وهو ما دفع بها إلى التّضييق على العلماء الذين ينتقدون بدع المتصوفة وخزعبلاتهم، وأبرز مثال على ذلك ما وقع لشيخ الإسلام ابن تيمية بدمشق وعموم الحنابلة(٧) ببلاد الشام من نكبات(٨)، فقد كانت راية التصوف فوق كل الرايات المذهبية التي كان الصراع بينها محتدمًا في بلاد الشام(٩).

وهكذا نجد أن من أسباب لجوء العوام إلى الصوفية والتّصوف هو احتدام الصراع المذهبي بين الطوائف مما جعل الناس في حيرة من أمرهم، فانصرفوا إلى عبادة الله تعالى على الطريقة الصوفية والتقرب إليه عن طريق الزهد والتقشف، وهو ما أدّى إلى انتعاش التصوف في البلاد الشامية(١٠)، وكان لابتعاد مشايخ الصوفية عن الصراعات السياسية والمذهبية دورًا كبيرا في اكتساب شهرة كبيرة لدى الطبقة الشعبية التي وجدت من خلالها المتنفس الوحيد من كل المشاكل التي كانت تعاني منها(١١)، هذا

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، (٤٠١/٥).
(٢) عمار عليّ حسن: الصوفية والسياسة في مصر، مركز المحروسة للبحوث والتدريب، المعادي، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص١٠٩.
(٣) إيرا لابيدوس: مدن الشام في العصر المملوكي، ص١٧٤.
(٤) العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، (٩١/١).
(٥) جهاد سليمان سالم المصري: التعليم في بلاد الشام في العهد الأيوبي (٥٧٠-٦٤٨هـ/١١٧٤-١٢٥٠م)، رسالة ماجستير ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم، جامعة آل البيت، عمان، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٤٩.
(٦) منصور الصوفي: الأوضاع الدينية للمسلمين في الشام، ص١١٥.
(٧) كان المذهب الحنبلي هو مذهب أكثر أهل الشام في العهد الأيوبي نظرًا لحرص الناس على حفظ السُّنة ورواية الحديث. الحديث. ابن كثير: البداية والنهاية، (١١٣/١٢).
(٨) ابن كثير: البداية والنهاية، (٣٨/١٤).
(٩) رياض صالح عليّ حشيش: الحركة الصوفية في بلاد الشام خلال الحروب الصليبية (٤٩٢-٦٩٠هـ/ ١٠٩٨-١٢٩١م)، ١٢٩١م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٥م، ص١٤٤.
(١٠) إيرا لابيدوس: مدن الشام في العصر المملوكي، ص١٨٢.
(١١) أحمد منصور: العقائد الدينية في مصر المملوكية، ص٦٦.



إلى جانب الرعاية الاجتماعية التي كان يقدمها المتصوفة لعموم الناس في تحمّل تكاليف المعيشة الصعبة من حيث الغذاء والكساء والمأوى خاصة، فهذا الرحالة ابن بطوطة (ت٧٧٧هـ/١٣٧٦م) يذكر عن مراكز الخدمات الاجتماعية ذات الطبيعة الصوفية في مدينة دمشق فيقول: "...، وكلّ من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بُدّ وأن يتأتّى له وجه من المعاش، من إمامة مسجد أو قراءة بمدرسة أو خدمة مشهد(١) من المشاهد المباركة، أو يكون لجملة الصوفية بالخوانق(٢) يجري له النفقة والكسوة"(٣).

ولعلّ خير ما نختتم به مبحث العوامل المذهبية التي أدّت إلى ظهور الفئات الشّعبية في بلاد الشام، هو ذكر بعض الطرق الصوفية التي انتشرت في المنطقة خلال العصر المملوكي:

أ- الطريقة الرفاعية: مؤسّسها هو أحمد بن علي الرفاعي (ت٥٧٨هـ/١١٨٢م)، وهذه الطريقة انتشرت في دمشق والقدس خاصة(٤). ومن أبرز أعلام هذه الطريقة طالب بن عبدان بن فضائل الرفاعي (ت٦٨٣هـ /١٢٨٤م) المقيم بقصر حجاج، وكان الناس يكثرون من التردد إليه(٥). ويُعتبر الشيخ حسن بن علي الرفاعي (ت٧٧٧هـ/١٣٧٥م)(٦) من أبرز مشايخ هذه الطريقة في مدينة دمشق(٧). وقد تفرّع عن هذه الطريقة فرع آخر عُرف **بالطريقة "الأحمدية"** نسبةً لأحمد الرفاعي نفسه، ومن هنا جاءت التسمية "الأحمدية"، إلا أن أتباعها في بلاد الشام تميزوا بتصرفات أنكرها عليهم الفقهاء وكفّروهم بسببها، وقد صنّف شيخ الإسلام ابن تيمة كتاب "كشف حال المشايخ الأحمدية وأحوالهم الشيطانية" لفضح أمرهم(٨).

ب- الطريقة البَكّائية: وُجدت في القدس وتنسب إلى الشيخ عليّ البكا (ت٦٧٠ه/١٢٧١م)(٩). ومن مشايخها في القدس محمد بن إبراهيم بن خليل بن أبي العباس الجعبري (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، وابنه عمر (ت٧٨٥هـ/١٣٨٣م) الذي أجازه جمع كبير العلماء، ثم ابن أخيه الله محمد بن نور الدين علي بن إبراهيم الجعبري (ت٨٤١هـ/١٤٣٧م)(١٠).

ج- الطريقة الحريرية: وهم أتباع أبو محمد أبي الحسن عليّ الحريري(١١) (ت٦٤٥ه/١٢٤٧م)، وقد أقام بدمشق يعمل الحرير ثم ترك ذلك وتصوف فاتّبعه طائفة من الناس سمُّوا بالحريرية(١٢)، واقتصر انتشار الطريقة على مدينة دمشق فقط. ومن أشهر أتباعها عمر بن محمد خواجا الفارسي (ت٧٠٢ه/١٣٠٢م)(١).

---

(١) المشهد: هو الضريح، وكانت هذه الكلمة في أصلها الأول تُطلق على مشهد (قبر) الحسين بن عليّ ﷺ الواقع شمالي غربي مدينة الكوفة بالعراق ، وهو الموقع الذي استشهد فيه الحسين مع أكثر آله وذويه ، ومع الزمن صار الاسم يُطلق على عدة أماكن بالقاهرة وحلب وفارس وغيرها. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، (٤٦٩/٢).

(٢) الخوانق: أو الخانقاوات؛ جمع خانقاه؛ وهي كلمة فارسية تعني محلّ التعبد والتزهد والبعد عن الناس، ومعناه بيت أو دار الصوفية، جُعلت لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله عزّ وجل، واستحُدثت الخوانق في الإسلام في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. ومن أشهر الخوانق "خانقاه سعيد السعداء" بمصر. الزبيدي: تاج العروس ، (٣٧٤/٣٦)، مادة "خانقاه"؛ محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص٦٦؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٨٦.

(٣) ابن بطوطة: محمد بن عبد الله الطنجي (ت٧٧٧هـ/١٣٧٦م): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأقطار، تحقيق: تحقيق: كرم البستاني، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص١٢٢.

(٤) قطب الدين اليونيني: ذيل مرآة الزمان، (٢١٤/٤)؛ العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، (٤٨/٢).

(٥) قطب الدين اليونيني: ذيل مرآة الزمان، (٥١٤/٤).

(٦) هو حسن بن علي الرفاعي شيخ الطريقة الرفاعية بدمشق (ت٧٧٧هـ/١٣٧٥م). ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، (١١١/١).

(٧) ابن حجر: أنباء الغمر بأبناء العمر، (١٦٤/١).

(٨) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، (٨٣/١)؛ الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، (٢٤٥/١).

(٩) العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، (١٥٤/٢)؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملك، (١٢٢/٥).

(١٠) العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، (١٥٤/٢).

(١١) كان مستخفاً بأمر الصلوات وانتهاك الحرمات. الذهبي: تاريخ الإسلام، (٢٧٨/٤٧).

(١٢) النعيمي: عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت٩٢٧هـ/١٥٢٠م): الدراس في تاريخ المدارس، أعدّ فهارسه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، (١٥٤/٢)؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، (٢٣٧/٢).



د- الطريقة الوفائية: تُنسب لمحمد الإسكندري (ت٧٦٥ه/١٣٦٤م)، والد بني وفا المشهورين، وقد اشتهرت بالتحديد في القدس، وكانت لهم زاوية تسمّى الحمراء بالقرب من الخانقاه الصلاحية. ومن شيوخها أبي بكر بن محمد بن عليّ بن أبي الوفا الحسيني (ت٨٥٩هـ/١٤٥٤م)(٢).

هـ- الطريقة القلندرية (أو الحيدرية): ظهر أمرها في دمشق في حدود سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م، وكان من شعار أتباعها لبس الفراجي(٣) والطراطير(٤)، وقصّ اللحى وترك الشوارب، وهو خلاف السُّنة، وهذا تأسيًّا بشيخهم حيدر الذي عُرفت الطريقة باسمه فقيل لها "حيدرية"، فحين أسره منافسوه قصُّوا لحيته وتركوا شواربه فاقتدى أتباعه به في ذلك(٥)، ومن هنا أطلق عليهم اسم "القلندرية"، وهي كلمة أعجمية بمعنى المحلقين(٦). وقد بُنيت لهم زوايا بظاهر دمشق قريبًا من العوينة(٧)، وقد انتقل بعض أتباعها إلى القدس كذلك. وأبرز شيوخ هذه الطريقة محمد بن يونس السّاوجي (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م)(٨).

---

(١) الغزي: محمد بن محمد الدمشقي (ت١٠٦١هـ/١٦٥٠م): الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، (١/٩٠-٩١).

(٢) العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، (١٨٦/٢).

(٣) الفراجي: جمع الفرجية وهي الثوب الواسع الطويل الأكمام يتزيا به علماء الدين. مصطفى الزيات وآخرون: المعجم الوسيط، (٦٧٩/٢).

(٤) الطراطير: جمع الطرطور وهي القلنسوة الطويلة الدقيقة الرأس. الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، (٤٢٥/١٢)، مادة "طرر".

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، (٤٨/ ٢٩)؛ ابن كثير: البداية والنهاية، (٢٢٩/١٣).

(٦) أنور محمود زناتي: معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية، عمان، دار زهران، ط١، ٢٠١١م، ص٣٢١.

(٧) العوينة: تصغير عين؛ وهي من أرض حرستا، ويظن أنها بقايا قرية، وهناك عوينة القصارين، وهي التي عرفت مؤخراً بعين القصارين تحت مدرسة التجهيز في الشرف الأعلى. النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، (١٦٥/٢)؛ محمد كرد علي: خطط الشام، ص١٧٥.

(٨) هو محمد بن يونس بن جمال الدين السّاوجي. قدم دمشق وسكن قاسيون وحصل له زهد وفراغ عن الدنيا، حلق وجهه ورأسه فوافقه أتباعه وفعلوا مثله. توفي بدمياط سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م. الذهبي: تاريخ الإسلام، (٤٢٤/٤٥)؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ، (١٩٣/٥).



الخاتمة:

وبعد؛ فمن خلال سوْق أبرز العوامل التي أدّتْ إلى ظهور الفئات الشّعبية في بلاد الشام وتوسّع نطاقها القاعدي خلال العصر المملوكي بدوريه البحري والبُرجي، وبيان مدى تأثير هذه العوامل في تلك الفئات، فإنه يمكننا في ما يلي الوصول إلى أهمّ النتائج المرجوّة من هذه الدراسة، وهي كالتالي:

١- اهتمّتْ الدولة المملوكية ببلاد الشام واعتبرتها الذراع الأيمن والقاعدة الخلفية التي من خلالها تستطيع المحافظة على كيانها وثباتها في وجه الأخطار الداخلية والخارجية الكثيرة التي كانت تواجهها.

٢- يُقصد بالفئات الشعبية عناصر الطبقة العامة من المجتمع، الذين هم السواد الأعظم من الناس، من العمال والحِرفيين والفلاحين وغيرهم ممّن لم يحظوا بمكانة اجتماعية معتبرة داخل المجتمع.

٣- كانت الطبقة العليا في المجتمع تنظر في الغالب الأعمّ إلى الفئات الشعبية نظرة احتقار وازدراء مهما ارتفعت منزلة عناصر هذه الفئات أو كانوا من ذوي العلم أو المال.

٤- من أبرز العوامل السياسية التي أسهمتْ في ظهور الفئات الشعبية هي الثورات والفتن السياسية التي عرفها العصر المملوكي والتي أدّت إلى الفوضى والاضطرابات ممّا أدّى في النهاية إلى تدهور الوضع الاجتماعي وانقسامه إلى طبقات مختلفة ومتباينة، ساعدتْ في ظهور هذه الفئات الشعبية بين جنبات المجتمع الشامي المتضرّر.

٥- من العوامل السياسية التي أدّت إلى ظهور الفئات الشعبية في المجتمع الشامي هو استبداد بعض الحُكّام من المماليك وتعاليهم على الطبقة العامة من الرعية بسبب عُقدة الرّق التي صاحبتهم.

٦- دفعتْ العقوبات القاسية - كالتّوسيط والتّسمير والتّكحيل وغيرها - التي فرضها بعض الحُكّام على بعض أفراد الفئات الشعبية الشامية إلى قيامهم بثورات عديدة ومساعدتهم لبعض الأمراء الذين خرجوا على الطاعة المركزية في القاهرة.

٧- أسهمتْ الاضطرابات الداخلية في بلاد الشام إلى تأزم الوضع الاقتصادي الذي دفع بدوره بأفرادٍ من الفئات الشعبية إلى القيام بعمليات السلب والنهب بحثًا عن الرزق.

٨- كان لتطبيق نظام الإقطاع الحربي في بلاد الشام أثره السيئ على المزارعين والفلاحين - الذين هم أبرز عناصر الفئات الشعبية - ممّا أسهم في انتشار الفتن والقلاقل وانقسام المجتمع الشامي إلى طبقتين: طبقة الإقطاعيين من العسكريين والفلاحين، وطبقة المزارعين المعدومين.

٩- أسهمتْ عوامل اقتصادية عديدة في ظهور الفئات الشعبية وتوسّع قاعدتها، منها الفُحش في فرض المكوس المتنوعة، وتكرار ظاهرة تزييف العُملة التي تؤدّي غالبًا إلى زعزعة الحياة الاقتصادية وانتشار الغلاء وارتفاع أسعار المواد الغذائية خاصة.

١٠- كان للكوارث الطبيعية كالزلازل والجفاف والسيول، وانتشار آفة الجراد، وظهور الأوبئة كالطواعين والأمراض المعدية، كان لها أثرها في انخفاض الكثافة السكانية في بلاد الشام وتشرّد من السكان بأعداد كبيرة بحيث أصبحوا ضمن الفئات الشعبية المهمشّة.

١١- انتشار الكوارث الطبيعية والأوبئة وتتابع وقوعها في فترات متقاربة كان يرافقه دومًا غلاء في الأسعار وندرة في السّلع وتعطّل في الأسواق ممّا زادت من أعداد المهمشين من الفقراء والمعدمين والأيتام ضمن الطبقة الشعبية.

١٢- كانت المصادرات من أبرز عوامل الظلم اجتماعي التي ساعدت على ظهور الطبقة الشعبية، حيث صارت المصادرات سياسة متبعة من طرف الدولة المملوكية طيلة تاريخها البحري والبُرجي.

١٣- من العوامل الاجتماعية التي أدّتْ إلى ظهور الطبقة الشعبية في بلاد الشام وزيادة أعدادها هو أسلوب السُّخرة الذي عانت منه هذه الطبقة طيلة فترات الحُكم المملوكي تقريبًا.



١٤- كانت جريمتي الرّشوة والاحتكار من العوامل الاجتماعية البارزة التي أسهمت توسيع الظلم الاجتماعي اتجاه الطبقات الفقيرة وبالتالي كانت سببًا في تنامي أعداد الفئات الشعبية في المجتمع الشامي.

١٥- انخرط كثيرٌ من أفراد الفئات الشعبية في ظاهرة التعصّب المذهبي الذي عرفه المجتمع الشامي خلال العصر المملوكي والذي عُطّلَتْ بسببه الصلوات وأُزهقت النفوس وجُمّدت العلوم والمعارف.

١٦- عزّزتْ السلطة المملوكية في بلاد الشام نفوذ المتصوّفة ورفعتْ مكانة أفرادها في المجتمع نظرًا لدور شيوخ التصوف الكبير في التأثير على الفئات الشعبية وقدرتهم على توجيههم نحو الاتجاه الذي يؤيد سياسة الحُكّام.

خريطة تُبيّن موضع بلاد الشام ضمن الدولة المملوكية

(عن: سامي المغلوث: أطلس تاريخ العصر المملوكي، ص١٢٥)



قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفي (ت٩٣٠هـ/١٥٢٣م): بدائع الزهور في وقائع الدهور، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، (د.ط)، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م.

ابن بطوطة: محمد بن عبد الله الطنجي (ت٧٧٧هـ/١٣٧٦م): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأقطار، تحقيق: كرم البستاني، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

ابن تغري بردي: جمال الدين يوسف الأتابكي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م):

- الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٨م.
- مورد اللطافة في من وُلّي السلطنة والخلافة، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.
- النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

ابن جُبير: محمد بن أحمد الكناني (ت٦١٤هـ/١٢١٧م): رحلته المعروفة بـالتذكرة بالأخبار عن اتّفاقات الأسفار، دار صادر، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

ابن الجوزي: عبد الرحمن بن عليّ البغدادي (ت٥٧٩هـ/١١٨٣م): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

ابن حبيب: الحسن بن عمر الحلبي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م): تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين وسعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٦م.

ابن حجر: أحمد بن عليّ العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م):

- إنباء الغُمر بأبناء العُمر، تحقيق وعناية: محمد عبد المعيد خان، وزارة المعارف بالهند، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حقّقه وقدم له ووضع فهارسه: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٦م.

ابن حزم: عليّ بن أحمد الأندلسي (ت٤٥٦هـ/١٠٦٤م): الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ط)، ١٩٦٨م.

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق: خليل شحاذة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

ابن دقماق: إبراهيم بن محمد القاهري (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م): الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق: محمد كمال الدين عليّ، دار عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

ابن رجب: عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي (ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م): الذيل على طبقات الحنابلة، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط١، ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م.

ابن شاكر الكتبي: محمد بن شاكر (ت٧٦٤هـ/١٣٣٦م): فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ط)، ١٩٧٣م.

ابن شاهين: عبد الباسط بن خليل الظاهري (ت٩٢٠هـ/١٥١٤م): نيل الأمل في ذيل الدُّول، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م،

ابن شداد: محمد بن عليّ الحلبي (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، (د.ط)، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.



ابن الطقطقي: محمد بن عليّ بن طباطبا (ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، ط١، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

ابن طولون: محمد بن عليّ الحنفي (ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م):

- إعلام الورى بمن وليّ نائبًا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق: محمد أحمد دهمان، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق: خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

ابن عبد الحق: عبد المؤمن البغدادي (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: عليّ محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

ابن عبد الظاهر: عبد الله بن رشيد الدين السعدي (ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م): الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق: أيمن فؤاد، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، (د.ط)، ١٩٩٦م.

ابن عرب شاه: أحمد بن محمد الدمشقي (ت٨٥٤هـ/١٤٥٠م): عجائب المقدور في أخبار تيمور، طبعة كلكتا، الهند، (د.ط)، ١٨١٧م.

ابن العماد: عبد الحي بن أحمد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤٠٦هـ.

ابن الفرات: محمد بن عبد الرحيم الحنفي (ت٨٠٧هـ/١٤٠٤م): تاريخ الدول والملوك المعروف بتاريخ ابن الفرات، تحرير: قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكانية، بيروت، ١٩٣٨م.

ابن قاضي شهبة: أبو بكر بن أحمد الشافعي (ت٨٥١هـ/١٤٥٣م): طبقات الشافعية، تحقيق: الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.

ابن كثير: إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م): البداية والنهاية، تحقيق: عليّ شيري، فهرسه: عبد الرحمن الشامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

ابن منظور: محمد بن مكرم الإفريقي (ت٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

ابن ناصر الدين: محمد بن عبد الله الدمشقي (ت٨٤٢هـ/١٤٣٨م): الرّد الوافر على من زعم أن من سمّى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٣٩٣هـ.

ابن الوردي: زين الدين عمر بن مظفر (ت٧٤٩هـ/١٣٧٨م): تاريخه، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

أبو حيان التوحيدي: عليّ بن محمد النيسابوري (ت٤١٤هـ/١٠٢٣م): الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: هيثم خليفة الطعيمي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

بدر الدين العيني: محمود بن أحمد اليمني (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٧م.

التطيلي: بنيامين بن يونة اليهودي (ت٥٦٩هـ/١١٧٣م): رحلته، ترجمة: عزرا حداد، طبع المدرسة الوطنية، بغداد، (د.ط)، ١٣٦٥هـ/١٩٤٥م.

الجوهري: إسماعيل بن حماد الفارابي (ت٣٥٠هـ/٩٦١م): الصّحاح في اللغة، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار القلم، دمشق، ط٥، ١٩٩٩م.

الذهبي: محمد بن أحمد الدمشقي (ت٧٤٨هـ/١٣٧٤م):

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٣م.
- تذكرة الحفاظ، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.



- سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- من ذيول العبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبعة الكويت الحكومية، الكويت ، (د.ط)، ٢٠١١م.

الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت٦٦٦هـ/١٢٦٨م): مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

الزبيدي: محمد بن محمد المرتضى اليمني (ت١٢٠٥هـ/١٧٩٠م): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الستار أحمد الفرّاج، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٣٦٥هـ/١٩٤٥م.

الزمخشري: محمود بن عمر الخوارزمي (ت٥٣٨هـ/١١٤٣م): أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

السبكي: عبد الوهاب بن عليّ الشافعي (ت٧٧١هـ/١٣٧٠م): طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤١٣هـ.

السخاوي: محمد بن عبد الرحمن المصري (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م):
- التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر المصري (ت٩١١هـ/١٥٠٥م): حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م): الملل والنحل، تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل، دار الفكر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

الصفدي: خليل بن أيبك المصري (ت٧٦٤هـ/١٣٢٦م):
- أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبو زيد ونبيل أبو عمه ومحمد موعد ومحمود سالم، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- نكث الهميان في نكت العميان، تحقيق: أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩١١م.
- الوافي بالوفيات، تحقيق: دوروتيا كرافولسكي، نشر: فرانز شتايز، شتوتغارت، (د.ط)، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

الطبري: محمد بن جرير بن يزيد (ت٣١٠/٩٢٢م): تاريخ الرسل والملوك، دار التراث، بيروت، ط١، ١٩٦٦م.

العليمي: عبد الرحمن بن محمد الحنبلي (ت٩٢٨هـ/١٥٢٢م): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

الغزي: محمد بن محمد الدمشقي (ت١٠٦١هـ/١٦٥٠م): الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

الفراهيدي: الخليل بن أحمد الأزدي (ت١٧٠هـ/٧٨٦م): كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (د.ط)، (د.ت).

الفيروز آبادي: محمد بن يعقوب الشيرازي (ت٨١٧هـ/١٤١٥م): القاموس المحيط، مؤسسة الرّسالة، مكتب تحقيق التراث، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

قطب الدين **اليونيني**: موسى بن محمد البعلبكي (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م): ذيل مرآة الزمان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

القلقشندي: أحمد بن علي المصري (ت٨٢١هـ/١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الانشا، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ط)، ١٩٩٨م.

المستعصمي: محمد بن أيدمر البغدادي (ت٧١٠هـ/١٣١٠م): الدر الفريد وبيت القصيد، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٣٦هـ/٢٠١٦م.



المسعودي: عليّ بن الحسين البغدادي (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: أسعد داغر، دار الهجرة، قم، (د.ط)، ١٩٨٧م.
مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري (ت٢٦١هـ/٨٧٤م): الجامع الصحيح المعروف بصحيح مسلم، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
المقدسي: محمد بن أحمد البشاري (ت٣٧٥هـ/٩٨٥م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة ، (د.ط)، ١٩٩١م.
المقريزي: أحمد بن عليّ القاهري (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م):
- إغاثة الأمة بكشف الغمة (أو تاريخ المجاعات في مصر)، مؤسسة ناصر للثقافة، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).
- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

النعيمي: عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت٩٢٧هـ/١٥٢٠م): الدراس في تاريخ المدارس، أعدّ فهارسه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
النويري: أحمد بن عبد الوهاب البكري (ت٧٣٣هـ/١٣٣٣م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.
ياقوت الحموي: ياقوت بن عبد الله الرومي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

ثانيًا: المراجع:

أحمد: أحمد عبد الرزاق: البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك؛ دراسة عن الرشوة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ط)، ١٩٧٩م.
آل سعود: تركي بن فهد: نشأة دولة المماليك ٦٤٨-٦٥٨هـ/١٢٥٠-١٢٦٠م؛ إعادة قراءة للمصادر، دار عين للدراسات، القاهرة، (د.ط)، ١٤٣٨هـ/٢٠١٣م.
باشا: عمر موسى: الأدب في بلاد الشام (عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك)، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٨٩م.
بني حمد: فيصل عبد الله: العوامل المؤثرة في تذبذب أسعار المواد الغذائية في بلاد الشام خلال العصرين المملوكيين الأول (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨١م) والثاني (٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨١-١٥١٧م)، أوراق بحثية ودراسات إسلامية، عمان، الأردن، ٢٠٠٧م.
تريتون: أ. س.: أهل الذمة في الإسلام، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ط)، ١٩٤٩م.
الجعيدي: شلبي إبراهيم: طبقة العامة في مصر في العصر الأيوبي ٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
جاسم: جاسم محمد: الأهمية السياسية والعسكرية لقيام دولة المماليك البحرية في مصر وبلاد الشام ٦٤٨-٧٨٤هـ، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، المجلد السادس، العدد الأول، ٢٠١١م.
الحجي: حياة ناصر:
- أحوال العامة في حكم المماليك؛ دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
- السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك - فترة حكم السلاطين المماليك البحرية من سنة ٦٦١-٧٨٤هـ، دراسة تاريخية وثائقية في واقع الممارسات المختلفة السلطانية والأميرية، جامعة الكويت، (د.ط)، ١٩٩٧م.



الحزوري: حسام الدين عباس: الحركة الفكرية ومراكزها في نيابة دمشق في عصر المماليك البحرية (٦٤٨هـ/١٢٥٠م/٧٨٤هـ/١٣٨٣م)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١١م.

حسن: عمار عليّ: الصوفية والسياسة في مصر، مركز المحروسة للبحوث والتدريب، المعادي، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

حمدي: عبد المنعم محمد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.

حمزة: عادل عبد الحافظ: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ط)، ٢٠٠٠م.

الخالدي: خالد يونس: الزلازل في بلاد الشام، من القرن الأول إلى القرن الثالث الهجري/القرن السابع إلى القرن التاسع الميلادي، مجلة الجامعة الإسلامية، مجلد ١٣، العدد الأول، يناير ٢٠٠٥م.

الدروبي: سمير: لفظة "لمكس": أصولها وتطورها الدلالي والتداولي في المعاجم العربية ومصادر التراث العربي، مجلة جامعة أم القرى، العدد ١٢، ربيع الآخر ١٤٣٥هـ/فبراير ٢٠١٤م، مكة المكرمة.

دهمان: محمد أحمد: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

ربيع: حسنين محمد: وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي لموانئ الحجاز واليمن في العصور الوسطى، مقال في الكتاب الأول من مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الجزء الثاني، الرياض، (د.ط)، ١٩٧٩م.

الزيات: مصطفى إبراهيم وحامد عبد القادر ومحمد النجار: المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).

زيدان: جورجي: استبداد المماليك، دار الجيل، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

الزيدي: مفيد: موسوعة التاريخ الإسلامي - العصر المملوكي، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، (د.ط)، ٢٠٠٩م.

سعداوي: نظير حسان: صور ومظالم من عصر المماليك ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، (د.ط)، ١٩٦٦م.

شاكر: محمود: التاريخ الإسلامي في العهد المملوكي (٦٥٦-٩٢٣هـ)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

الشربيني: البيومي إسماعيل:

- مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.
- النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ، ط١، ١٩٩٨م.

الشلي: فيصل: بلاد الشام في ظل الدولة المملوكية الثانية (دولة الجراكسة البرجية ١٣٨١م-١٥١٧م)، دار الزمان المدينة المنورة، ط١، ٢٠٠٨م.

ضومط: أنطوان خليل: الدولة المملوكية (التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ١٢٩٠م-١٤٢٢م)، دار الحداثة للطباعة والنشر، ط٢، (د.ت).

الطباخ: محمد راغب بن محمود: إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، منشورات دار القلم العربي، حلب، ط١، ١٣٤١هـ.

الطراونة: مبارك محمد: الأوبئة (الطواعين) وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨٢م-١٥١٦م)، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد الرابع، العدد الثالث.



طليع: أمين: أصل الموحدين الدروز وأصولهم، دار الأندلس للطبع والنشر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
عاشور: سعيد عبد الفتاح:
- المجتمع المصري في عهد سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م.
- العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦م.
- نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك ، مطبوع ضمن موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (د.ط)، ١٩٨٧م.

العبادي: أحمد مختار:
- في التاريخ الأيوبي والمملوكي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ط١، ١٩٩٢م.
- قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ط١، ١٩٨٢م.

عباس: إحسان: تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، (د.ط)، ١٩٩٨م.
عبد الموالي: محمد أحمد: العيارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، (د.ط)، ١٩٨٧م.
عبد المهدي: عبد الجليل حسن: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، مكتبة الأقصى، عمان، ط١، ١٩٨٠م.
عثامنة: خليل: فلسطين في خمسة قرون من الفتح الإسلامي حتى الغزو الفرنجي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، (د.ط)، ٢٠٠٠م.
العصفور: سعود محمد: وسائل التعذيب في العصر المملوكي، مكتبة ابن قتيبة، المنصورة ، (د.ط)، ١٤٢٠هـ.
عطا الله: محمود عليّ: نيابة غزة في العهد المملوكي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
علال: خالد كبير: التعصب المذهبي في التاريخ، دار المحتسب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م.
عليّ: محمد كرد: خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
عمر: أحمد مختار عبد الحميد: معجم اللغة العربية المعاصرة، دار عالم الكتب، بيروت، (د.ط)، ٢٠٠٨م.
الغامدي: عبد الله سعيد: جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، (أصل الكتاب رسالة دكتوراه)، مطابع جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
الغزي: كامل حسين: نهر الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، حلب، ط٢، ١٤١٩هـ.
غوانمة: يوسف درويش:
- تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، الزرقاء، الأردن، (د.ط)، ١٩٨٢م.
- دمشق في عصر دولة المماليك الثانية، دار الفكر ناشرون وموزعون، عمان، ط١، ٢٠٠٥م.
- الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب الشام (الأردن وفلسطين) في العصر المملوكي، مجلة علوم فصلية، العدد ١٣-١٤، دمشق، ١٩٨٣م.

فاخوري: محمود: موسوعة وحدات القياس العربية الإسلامية وما يعادلها بالمقادير الحديثة: الأطوال، المساحات، الأوزان، المكاييل، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، (د.ط)، ٢٠٠٢م.
الفراني: عبد الحميد جمال: الأوقاف الإسلامية في فلسطين في العصر الإسلامي ١٥-٩٢٢هـ/٦٣٦-١٥١٦م، بحث مقدم إلى مؤتمر فلسطين الدولي للأوقاف الإسلامية ودورها في مواجهة التحديات الصهيونية الذي نظمته هيئة علماء فلسطين بالخارج بالتعاون مع دار الفتوى بالجمهورية اللبنانية بتاريخ ٢١-١٣ يوليو ٢٠١١م، (د.ن)، (د.ت).



فهمي: نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ط)، ١٩٧٣م.

قاسم: قاسم عبده:

- أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، مطابع جامعة عين شمس، القاهرة، (د.ط)، ١٩٧٨م.
- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي؛ عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)، ١٩٧٩م.

قلعجي: محمد رواس وحامد صادق قنيبي: معجم لغة الفقهاء، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

كاهن: كلود: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد الشيخ، دار سينا للنشر، بيروت، (د.ط)، ١٩٩٥م.

لابيدوس: إيرا مارتين: مدن الشام في العصر المملوكي، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٥م.

مجموعة مؤلفين: الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع (شارك فيها مجموعة كبيرة من المفكرين وأهل العلم العرب والمسلمين وغيرهم)، الرياض، ط٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

المغلوث: سامي عبد الله: أطلس تاريخ العصر المملوكي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٣٣هـ/٢٠١٣م.

منصور: أحمد صبحي: العقائد الدينية في مصر المملوكية؛ بين الاسلام والتصوف، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، (د.ط)، ٢٠٠٠م.

النحال: رشا فخري: فن الرسائل في العصر المملوكي؛ دراسة تحليلية، الجامعة الإسلامية، غزة، (د.ط)، ٢٠١٣م.

الهباهبة: طه علي: الشوبك في التاريخ والوجدان الشعبي، دار الينابيع للنشر والتوزيع، الجيزة، (د.ط)، ٢٠٠٠م.

الوقاد: محاسن محمد: الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ط)، ١٩٩٩م.

ثالثًا: الرسائل الجامعية:

أبو الفرج: هيام صالح: مجتمع دمشق ودوره السياسي في عصر الدولة المملوكية الثانية (٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م)، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

حشيش: رياض صالح: الحركة الصوفية في بلاد الشام خلال الحروب الصليبية (٤٩٢-٦٩٠هـ/١٠٩٨-١٢٩١م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٥م.

زعرور: إبراهيم: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة دمشق، دمشق، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

زناتي: أنور محمود: معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية، عمان، دار زهران، ط١، ٢٠١١م.

الصوفي: منصور احميد سالم: الأوضاع الدينية للمسلمين في الشام (٦٤٨-٩٢٢هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، كلية الآداب، قسم التاريخ والآثار، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.



العزام: غسان محمد علي: المصادرات في بلاد الشام في الدولة المملوكية الأولى ٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن، ٢٠١٤م.

القططي: عبد الرؤوف جبر: السجون في مصر وبلاد الشام في الدولتين الأيوبية والمملوكية ٦٧٦-٩٢٣هـ/١١٧١-١٥١٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠١٢م.

كتبي: مسعد سيد محمد: نيابات الشام في عهدي برسباي وجقمق خلال الفترة ما بين ٨٣٥-٨٥٧هـ/١٤٣٣-١٤٥٣م، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٩٩م.

المباركي: فاطمة محمد حسن: الأزمات الاقتصادية في الحجاز خلال العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٣٢هـ/٢٠١٢م.

المصري: جهاد سليمان: التعليم في بلاد الشام في العهد الأيوبي (٥٧٠-٦٤٨هـ/١١٧٤-١٢٥٠م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم، جامعة آل البيت، عمان، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

مقابلة: إيمان أحمد: القرية في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، قسم الآثار، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩٨م.

النوايسة: كرم محمد: زيف النقود في عصر دولة المماليك البرجية (٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨٣-١٥٥١م)، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الإسلامي، جامعة مؤتة، الأردن.



The impact of political, economic, social and sectarian factors on popular groups in "Bilad Asham" during the Mamluk era (667-923 AH/1268-1517AD)

By

Dr. Saadia bint muaz Al-Zahrani

Umm Al-Qura Unversity – College of Sharia and Islamic Studies
Department of Islamic History

Abstract:
This research aims to identify the details of the political, economic, social and sectarian factors that helped the emergence of the popular groups in "Bilad Asham" and the increase in the numbers of their members and the area of their base during the Mamluk era, which is a long era full of various events in which the members of the popular groups were an important part of it. The importance of this study lies in the fact that it clears the dust of a very important period of Shami history, which is the period of Mamluk rule that lasted for nearly three centuries, The study also sheds light on the history of the Shami popular groups, which constituted the majority of the members of society at the time, in addition to highlighting the suffering that these groups faced in establishing their existence and defending their rights and interests. In terms of results, the research reached a number of important results, including that what is meant by the popular groups are the elements of the general class of society who are the vast majority of people, whether they are workers, artisans, peasants, and others who do not have a significant social status within society. Among the results is that many economic factors contributed to the emergence of popular groups and the expansion of their base, Among them is the excessive imposition of various taxes, and the recurrence of the phenomenon of counterfeiting currency which often leads to the destabilization of economic life, the spread of high prices, and the rise in food prices in particular.

key words: Public class - Mamluks - Bilad Asham - Revolutions - Taxes.